٢٠٢٣

الأديان واختلاف الثقافات

عاصف الخالدي
كاتب أردني

بداية المعتقدات الدينية..
هل عرف الإنسان الأول الإيمان؟

أخذ الإنسان الأول يتميز، حين بدأ بصنع أدواته، وما جعله يتطور أكثر في ذلك الحين، هو صنعه أدواتٍ لصناعة أدواتٍ أخرى بها، ثم أخذ ربما، يشعر بالتفوق على الحيوانات؛ لأنه اكتشف النار وذلّلها لخدمته، وإذا أمكن اعتبار بشر العصر الحجري العلوي «بشراً كاملين»، فلا بد أن إحساسهم بالتفوق، منحهم القدرة على ممارسة شعائر أو معتقداتٍ ما.

ويشير توجه بشر العصر الحجري «قبل ٦٠٠ ألف عام على الميلاد» إلى أكل اللحوم، وإراقتهم للدماء في سبيل ذلك، ومن ثم الانتباه إلى الدم البشري وحرمته، أنهم امتلكوا معتقداتٍ وطقوساً، لا بد أنّها رافقت الإنسان الأول، ولم يتم الكشف عن شيءٍ منها سوى خلال الحفريات المتعلقة بالعالم الديني لصيادي العصر الحجري، التي يعود تاريخ معظمها إلى «ثلاثين ألف عام قبل الميلاد فقط».

وفي كتابه «تاريخ المعتقدات الدينية» الصادر عن دار الشام العام ١٩٨٦، يرى الكاتب والباحث ميرسيا إلياد، أنّ «الحفريات التي استهدفت مقتنيات ومعتقدات

«توجه الإنسان إلى دفن موتاه في المقابر بعد اقتناعه بفكرة أن الحياة لا تنتهي لكنها تتجدد»

الصيادين البدائيين في العصر الحجري تكشف عن تقديس للحيوانات باعتبارها مشابهة للبشر، لكنها تتمتع بقدراتٍ فوق طبيعية بالقياس مع القدراتِ البشرية»، كما تشير إلى اعتقادهم «بتحوّل البشر إلى حيوانات والعكس، وأنّ روح الإنسان قد تنتقل إلى حيوان ما».

كما آمن الصيادون، بحسب إلياد، بوجود روحٍ عليا «تحمي الصيادين والطرائد في آن واحدٍ من الوحوش الكاسرة»، أما إماتة أو قتل الحيوانات لغرض تأمين الغذاء حفاظاً على البقاء، فيعد «شعيرةً دينية»، اعتقاداً أنّ هذه الروح، تسهر لتتأكد أنّ الصياد، لا يصطاد ويميت من الطرائد، إلا بقدر ما يحتاج إليه فقط.

وقادت هذا المعتقدات البدائية، إلى معتقداتٍ أخرى، من أبرزها أنه لا يجوز تبديد الطعام، أما عظام الطرائد، فهي تبقى في إطارٍ «مقدس»؛ «لأن الروح العليا، سوف تعود فتنبت اللحم فوق عظام هذه الحيوانات، خصوصاً جماجمها، وهو ما انسحب على الأموات من البشر بعد ذلك» وفق إلياد.

الكاتب والباحث ميرسيا إلياد

ولهذا، تعد عظام الموتى من البشر والحيوانات، من أقدم الوثائق التاريخية التي تشير إلى المعتقدات البشرية الدينية، خاصةً أنه لم يُعثر عليها في قبور بالبداية؛ أي إن الغرض من دفنها أولاً، لم يكن إخفاء جثثها تحت التراب فقط، كإجراء طبيعي مثل الذي يتخذه البشر اليوم.

ومن جهتها، تشير الباحثة في علوم وتاريخ الديانات «كارين أرمسترونغ» في كتابها تاريخ الأسطورة، الصادر العام

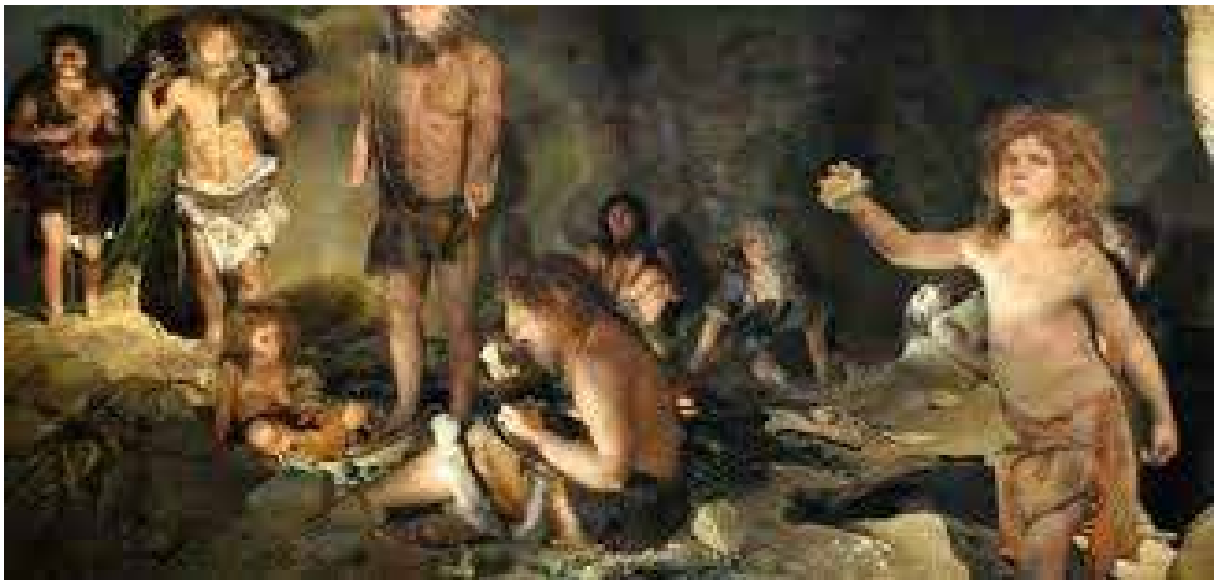

يرسم الباحثون صورةً عامة لمعتقداتِ ما قبل التاريخ على أنها تشكلت من خلال قصور فهم لدى الإنسان الأول

٢٠٠٨ عن الدار العربية للعلوم، إلى أنّ فترة الصيادين البدائيين اللاحقة (٨٠٠٠ – ٢٠٠٠ قبل الميلاد)، امتازت بطقوس تعبدية أكثر وضوحاً، إن صح التعبير، لا تتضمن «منافع أو مطالب خاصة بشأن الخلود أو تحقيق الأمنيات»، إنما كانت أقرب إلى الأساطير منها إلى التدين الذي نعرفه اليوم، وتتمحور حول البقاء والغذاء، دون طمعٍ بالخلود».

أما توجه الإنسان فيما بعد إلى الدفن في مقابر، فترى أرمسترونغ ومثلها إلياد، أنه يرجع إلى اقتناعِ البشر البدائيين فيما بعد بـ«فكرة أنّ الحياة لا تنتهي، لكنها تتجدّد»، ومن هنا «أخذوا يدفنون موتاهم في قبورٍ خاصة، لاقتناعهم أنّهم سوف يعودون إلى الحياة»، ويفسر إلياد هذا الرأي بقوله إنّ «عودة الموتى من خلال الأحلام»، جعل من يحلمون بهم «يحتاطون بدفنهم في قبور معينة، تحسّباً لعودتهم في أيّ لحظة».

وباختصار، تقود معتقدات الدفن وتقديس الصيد وجمع الغذاء، وتطور عملية الدفن لتصبح في قبورٍ محددة ومنظمة، إلى وجود إيمانٍ بحياةٍ أخرى بعد الموت؛ حيث «يسمو الميت عن الحياة اليومية، وينتقل إلى بعد مختلف»، إضافة إلى الطوطمية «تقديس الحيوانات والأدوات»، واستخدامها كمؤشراتٍ تدل على تواريخ متعلقة بفصول الطبيعة الأربعة، والصيد، والموت، كعلاماتٍ مقدسة.

ويؤكد الباحث العربي في تاريخ الأديان خزعل الماجدي، من خلال كتابه

«تشير طقوس الإنسان الأول التي عثر عليها في الكهوف والقبور إلى محاولته التعبير عن حياته وليس الإيمان»

«أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ» الصادر عن دار الشروق العام ١٩٩٧، أن «التفكير بالموت لم يأخذ بعداً ميتافيزيقياً ودينياً شاملاً؛ بل تركز وفق القدرات العقلية لبشر العصور الحجرية، على الخوف وتقديس موت الفرد، بدلاً من التساؤل الفكري والديني حول أسباب الوجود والموت نفسها».

ويرسم هؤلاء الباحثون، صورةً عامة لمعتقداتِ ما قبل التاريخ، على أنها تشكلت من خلال قصور فهم لدى الإنسان الأول في العصور الحجرية، البدائي، الصياد تحديداً، وما تركه من آثار محدودة في المدافن، ورسوماتٍ لطقوسه، عثر عليها في الكهوف بفرنسا وأستراليا ومناطق أخرى من العالم، أشارت إلى أنه حاول التعبير، ولم يحاول الإيمان؛ حيث عبّر عن معضلاته في مواجهة أسباب البقاء ومخاطر الزوال، وبقي مراوحاً بين قتل الطريدة لأكلها، أو قتلها خوفاً منها، وعدم قدرته على تفسير غياب الفرد حين يخطفه الموت، فجعل من طقوسه كلها، نوعاً من «الأساطير»، أو «السحر».

ولم يسأل عن طبيعة القوى أو الأرواح التي تسكن الحيوانات والغابات وظواهر الطبيعة، إنما بقيت مجهولة لديه، خلال العصور الحجرية الأولى، لتبقى مصدراً لخوفه، ممجّداً فيما بعد، المرأة، ومنحها الحياة من خلال «الولادة» للتخفيف من خوفه، وبقي على هذا التقديس، وهذه الطقوس، إلى أن اجتاز العصور الجليدية، وبدأ يصنع غذاءه بنفسه، من خلال اكتشافه «الزراعة».

خالد بشير
كاتب أردني

الزمن من منظور الأديان.. لماذا ليست كلّ الأيام سواء؟

بينما حار علماء الفيزياء والفلاسفة في ماهيّة الزمن وتفسيره، كانت الأديان والمعتقدات قد تعاملت معه من منظور مغاير؛ فلم تُعنَ به كظاهرة، وإنما اتجهت لإعطاء القيمة والمعنى له، وراحت تروي الحكايات في تفسير بدايته، وتصوّر نهايته، وقسّمته إلى أزمان مقدّسة مباركة، وأخرى مدنّسة مشؤومة.

بداية الزمن

تجمع غالبية الديانات على وجود لحظة بداية للزمان، وهي ذاتها لحظة خلق الكون؛ فخلق الكون هو إيجاده من العدم، وهو فعل قامت به الآلهة، كما في الأديان الوثنية التعددية، أو الإله الواحد، كما في الأديان التوحيدية.

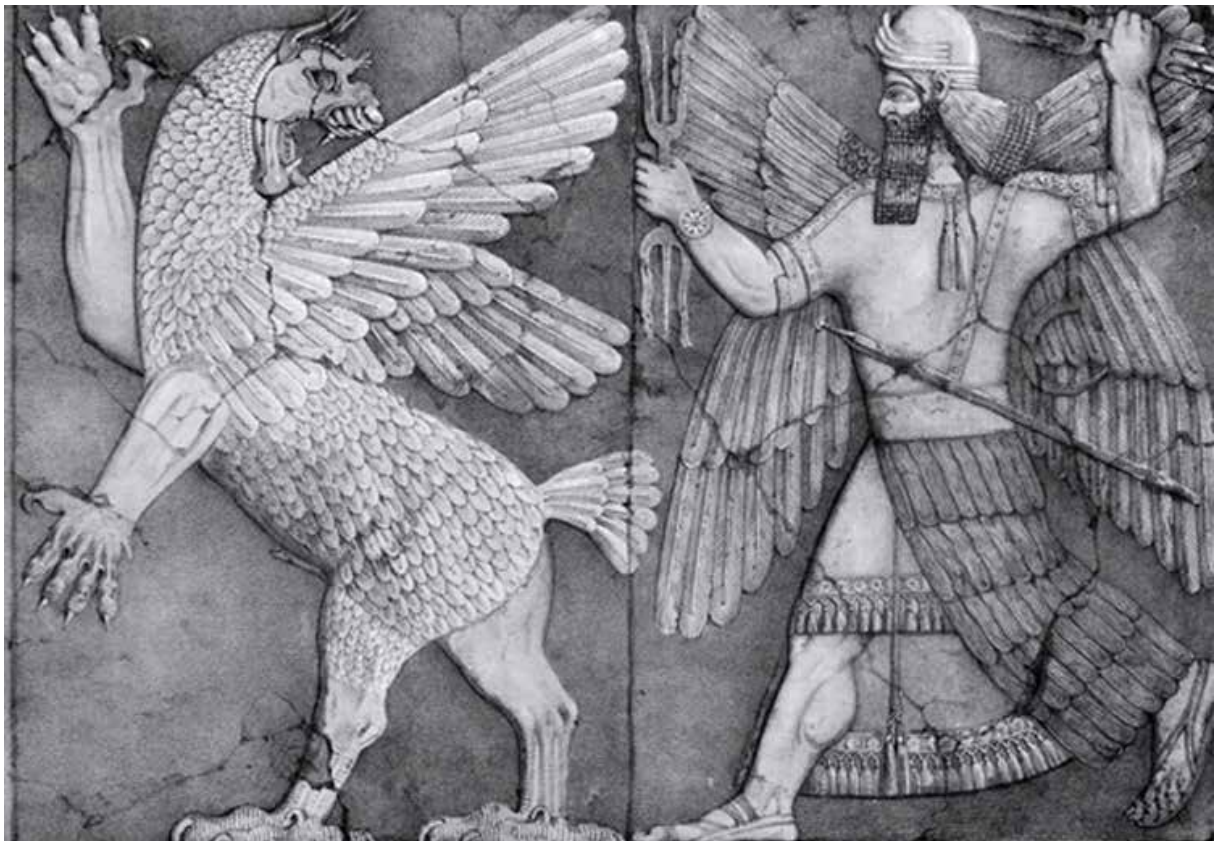

نحت يصوّر صراع الإله «مردوخ» مع «تيمات» إله البحر المالح قبل أن يبدأ بالخلق

وبحسب العهد القديم، فإنه «في البدء خلق الله السموات والأرض» (سفر التكوين)، وكان «روح الله يرف على وجه المياه» (التكوين)، ومن الماء بدئ الخلق، فأخرج منه السماء والأرض وفصلهما عن بعضهما، واستمرت عملية الخلق، بحسب الرواية التوراتية، «مدة ستة أيام، ثم استراح الله بعد إتمامه الخلق في اليوم السابع»، وبحسب سرد التوراة لقصص الأنبياء وأعمارهم الواردة، فإن عُمر البشرية والأرض اليوم لا يتجاوز السبعة آلاف سنة منذ بداية الخليقة. وفي اليوم الرابع من أيام الخليقة الستة، خلق الله الشمس والقمر، وكان ذلك بداية الليل والنهار، وبالتالي تحوّل الزمن إلى وحدات قابلة للعدّ والقياس، من أيام وأشهر وسنوات.

وقد تأثرت رواية الخلق التوراتية بما سبقها من أساطير ومعتقدات، وخاصّة التي كانت منتشرة في بلاد ما بين النهرين، وبالتحديد أسطورة الخلق البابلية، الـ «إينوما اليليش»، وهي ملحمة شعرية تحكي قصة خلق الإله مردوخ للكون بعد انتصاره في صراع خاضه مع الآلهة الأخرى. وكذلك روايات الخلق عند الفراعنة، تتحدث عن وجود ماء في البداية، ومنه ظهرت الآلهة الخالقة، ومنه خلق الإله «رِع» السماوات

«تأثرت رواية الخلق التوراتية بما سبقها من أساطير ومعتقدات خاصّة التي كانت منتشرة في بلاد ما بين النهرين »

والأرض. وبحسب أساطير وحكايات الخلق عموماً تتصف الآلهة أو الإله، بكونها أزلية وأبدية (سرمدية)، أما الكون (السماء والأرض) فهي حادثة؛ بمعنى لها لحظة بداية.

وقد تبنّت المسيحية رواية العهد القديم، كما جاء القرآن الكريم موافقاً لها، فاعتبر بأنّ خلق السماوات والأرض تمّ في ستة أيام: «الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام» (السجدة آية ٤)، وبأن عرش الله كان على الماء: «وكان عرشه على الماء» (السجدة آية ٤)، وبأن كُلّ الأحياء خلقت من الماء: «وجعلنا من الماء كُلّ شيء حي» (الأنبياء آية ٣٠)، وبأن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ومن ثم فصلتا: «كانتا رتقاً ففتقناهما» (الأنبياء آية ٣٠).

نهاية الزمن

وبحسب الديانات الإبراهيمية وأديان أخرى، فإنّ الزمن يسير بشكل حتمي نحو النهاية، والتي تأخذ صوراً مختلفة، ففي اليهودية تأتي نهاية الزمن مع قدوم مخلص (المسيا) من نسل النبي داود يخلص الشعب اليهودي من معاناته ويجمعهم من شتاتهم في أرض فلسطين ويقيم فيها «مملكة إسرائيل»، التي تُمثّل الجنة الأرضية المخصصة للشعب اليهودي حصراً.

أما في المسيحية، فتأتي نهاية الزمن مع المجيء الثاني للمسيح، ليقوم بعدها الأموات، ويبدأ يوم الدينونة (الحساب)، ومن ثم ينتقل المؤمنون إلى ملكوت الله وتبدأ الحياة الأبدية. وجاء في «إنجيل متّى» أنّ عودة المسيح تسبقها علامات، من حدوث المجاعات والزلازل.

وفي الإسلام أيضاً، هناك ايمان بالعودة الثانية للمسيح: «وإنه لَعَلَمٌ للساعة» (الزخرف آية ٦١)، مع ظهور علامات أخرى، كظهور المهدي، والمسيح المُضاد (الدجّال)، وخروج «يأجوج ومأجوج»، ومن ثم تأتي النهاية مع طلوع الشمس من مغربها، لتبدأ بعد ذلك أحداث «يوم القيامة»، اليوم الأخير في الزمن الأرضي، من النفخ في الصور إلى البعث والنشور، وهو يوم طويل يصل مقداره إلى خمسين ألف

رسم تخيلي يصوّر التحام الآلهة في معركة «راجناروك» النهائية

سنة: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدّون» (المعارج آية ٤)، وهكذا، فإنّ الزمان الدنيوي سينتهي ويبدأ عالم آخر جديد باحداثيات جديدة، هو «العالم الآخر»، أو «الحياة الآخرة»، وفي ذلك العالم لا تجري قوانين الزمن المعهودة؛ فأعمار الناس ثابتة، والحياة فيه خالدة لا نهاية لها: «خالدين فيها أبداً».

كما ظهرت تصورات نهاية العالم في ديانات ومعتقدات أخرى، كما في أسطورة «راجناروك» (مصير الآلهة)، في الميثولوجيا النوردية (شعوب شمال أوروبا)، حين تلتحم الآلهة في معركة عُظمى.

وفي البوذية، يُنقل عن بوذا في تعاليمه، أنه أخبر أتباعه عن قدوم «الماتيريا»، وهو مخلّص منتظر، يظهر بعد أكثر من أربعة آلاف سنة من زمن بوذا وينشر وعياً جديداً في العالم.

وعند المايا، تحدثت الأساطير عن نهاية منتظرة للعالم، وذلك مع انتهاء «تقويم أمريكا الوسطى الكبير» في سنة ٥١٢٥، الموافقة لسنة ٢٠١٢ للميلاد، وهو ما دفع العديدين لانتظار حدث النهاية في تلك السنة، وتوقع أن يكون ذلك عن طريق اصطدام جرم سماوي بكوكب الأرض.

بتأثير من معتقدات المايا ساد اعتقد كثيرين أنّ نهاية الزمان ستكون عام ٢٠١٢

الزمن الدائري

وخلافاً لتصورات الزمن الخطي، التي سادت في الديانات الابراهيمية وغيرها، ساد الاعتقاد في الهندوسية، كبرى الديانات في الهند، بأنّ الزمن دائري؛ فهناك «عَجَلة للزمن، تتكرر فيها الأزمنة والعصور، وبحسب المعتقدات فإنّ هناك أربع أزمنة، تبدأ بـ «ساتيا يوغا»، وهو العصر الذهبي، الذي يسود فيه الخير ويعمّ، ومن ثم يتم الانتقال إلى عصر «تريتا يوغا»، وهو عصر يشهد بداية الانحدار وظهور الشرّ، ومن ثُمّ عصر «دوابرا يوغا» وفيه المزيد من الانحدار، وصولاً إلى عصر «كالي يوغا»، وهو عصر الظلام والدمار، والذي لا ينتهي إلّا بظهور «كالكي»؛ التجسّد الأخير للإله «فشنو»، الذي يُنهي هذا العصر، ويعود بالزمن إلى «ساتيا يوغا» من جديد. وهكذا، في دورة متعاقبة لانهائية.

الزمن المقدس والزمن المدنّس

وتشترك أديان عديدة في الاعتقاد بوجود لحظة مقدسّة في بداية الزمن، ومن ثم يجري الابتعاد عنها بمرور الزمن، مع تراجع وانتشار تدريجي للشرّ والفساد، ففي الأديان الإبراهيمية كانت بداية الزمن في الجنة؛ سواء السماوية، أو جنة عدن الأرضية، ومن ثُمّ خرج آدم وحواء منها

يقضي «كالكي» على الشرّ ويعيد دورة الزمن إلى العصر الذهبي من جديد

بسبب اقتراف الخطيئة، وبدأ الناس بعدها يرتكبون الخطايا والمعاصي، وبحسب التوراة، فإنه كان يُبعث بعد كل مرحلة من الفساد نبيّ يُصلح قومه ويعيدهم إلى حالة الطهارة والصلاح الأولى، كما أن هناك عودة منتظرة للمخلص (المسيا) الذي يحرر شعبه ويدخلهم الجنة من جديد في نهاية الزمن، وبالتالي فإن هناك تماثلاً ما بين بداية الزمن ونهايته، من حيث الاشتراك في القداسة والخير.

واشتركت الديانتان؛ المسيحية والإسلامية في هذه التصوّرات؛ ففي الإسلام يسود الاعتقاد بحالة التراجع المستمر مع مرور الزمن، ويشتهر في الاستدلال على ذلك الحديث النبوي «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم...»، و«لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرّ منه»، والآية الكريمة «ثُلّة من الأولين وقليل من الآخرين» (الواقعة آية ١٣)، وهكذا، إلى أن يَصِل الزمن إلى مرحلة «زمن الفتن»، وهو الزمن الذي يعمّ فيه الظُلم وتنتشر فيه الخطايا والمعاصي، وبالتالي فهو زمن مُدنّس، خلافاً لحالة القداسة والنقاء الأولى، حين كان الخير هو المنتشر، ولا ينتهي هذا الزمن إلا بظهور «المهدي»، الذي «يملأ الدُنيا قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظُلماً وجوراً»، فيعيد الزمن من جديد إلى حالة القداسة الأولى.

«تبنت المسيحية رواية العهد القديم، كما جاء القرآن الكريم موافقاً لها فاعتبر أنّ خلق السماوات والأرض تمّ في ستة أيام»

وبسبب الاعتقاد بدناسة الزمن المتأخر وفضل الزمن السابق، تظهر نزعة الحنين إلى الزمان الماضي والزمن الأول، زمن «السَلَف» والأجداد، وهو الحنين الذي ينبني عليه الفِكر السَلَفيّ، الذي يريد العودة إلى ذلك الزمن وإعادة إحياء حتى أبسط عناصره وتقاليده، من لباس ومظهر وهيئة.

خيرٌ من ألفِ شهر

ولا يمنع الاعتقاد بالاتجاه نحو الانحدار من وجود أيام مقدّسة استثنائية، يتجدد فيها الزمن ويولد من جديد، وأشهر تلك الأيام هي أيام «الأعياد»، الأيام الاستثنائية التي تُرفع فيها النواهي والمحظورات، كما في أكثر الثقافات والمعتقدات.

كما أنّ هناك أياماً مقدسة على مستوى الأسبوع، فعند اليهود يتم تعظيم يوم السبت، وهو يوم يتركون العمل فيه، كما جاء النصّ على ذلك في نص توراتي (سفر الخروج)؛ وذلك كمحاكاة للفعل الإلهي عندما استراح الرب في اليوم السابع بعد إتمامه خلق السماوات والأرض. وفي المسيحية، يعظّم المسيحيون يوم الأحد، وتقام الصلوات فيه؛ بسبب حدوث قيامة المسيح فيه، بعد يومين من صلبه يوم الجمعة.

أما عند المسلمين، فهناك يوم الجمعة، الذي هو بمثابة عيد للمسلمين، تقام فيه الصلاة الجامعة وتلقى فيها الخطبة، وقد فسر سبب التعظيم الحديث النبوي الشريف: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خُلِق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها».

وهناك أيام وليالٍ أخرى تحظى بالخصوصية والتعظيم في الإسلام، كـ «ليلة القدر»، التي هي «خير من ألف شهر»، وذلك بسبب نزول القرآن الكريم أول مرة فيها، وهناك ليلة «النصف من شعبان»، وهي ليلة تحويل القبلة من القدس إلى مكة، التي يغفر فيها الله لجميع المؤمنين، وكذلك «يوم عرفة»، الذي يغفر صيامه

«هناك أيام وليالٍ تحظى بالتعظيم في الإسلام كليلة القدر وذلك بسبب نزول القرآن الكريم أول مرة فيها»

ذنـوب سـنة سـابقة وسـنة لاحقـة، بمـا يمثـل لحظـة ولادة جديـدة للمؤمـن.

وهنـاك يـوم عاشـوراء، الـذي يشـترك في تعظيمـه اليهـود والمسـلمون، بسـبب الاعتقاد بـأنّ الله، عـز وجـل، نجـى مـوسى، عليـه السـلام، في هـذا اليـوم مـن فرعـون، وقـد أصبحـت لـه خصوصيـة كبـيرة في المعتقـد الشـيعي بسـبب وقـوع حادثـة كربـلاء ومقتـل الحسـين فيـه. كمـا تُـروى الأحاديـث في فضائل أوقـات معينـة مـن اليـوم؛ كالفجـر والسـحر والسـاعة الأخـيرة مـن يـوم الجمعـة.

ومهمـا اختلفـت الأديـان في نظرتهـا للزمـن، فإنهـا اتفقـت عـلى إعطائـه القيمـة والمعـنى، ولـم تقـف عنـد ظاهـره، وخصصـت أحكامـاً خاصّـة بـه، ورَوَت فيـه النصـوص والحكايـات، وهـو مـا أثـرى وتقاطع مـع القيـم والرمـوز في الثقافـات البشريـة المختلفـة، حـتى يومنـا هـذا.

خالد بشير
كاتب أردني

كيف نظرت الأديان إلى السماء؟ وما هي أشهر المعتقدات المرتبطة بها؟

السماء.. هي ذلك اللون الناتج عن انعكاس أشعة الشمس عند عبورها في طبقات الغلاف الجوي، هذا ما نعرفه اليوم، لكنّ الحال كان مختلفاً في الأزمنة القديمة؛ حيث كان الاعتقاد بأنّ السماء سقف ملموس محيط بالأرض، فكانت دوماً موضوعاً للتأمل والنظر؛ فانبهر الإنسان بلونها الأزرق الصافي، واتساعها اللامحدود.

مكان تواجد الآلهة

رأى الإنسان كيف تأتي الحياة من السماء؛ فمنها ينزل الماء، وتأتي الحرارة المنبعثة من الشمس، وعند نزول الليل، يظهر فيها القمر والكواكب والنجوم، التي تنير الليالي المظلمة وتهدي المسافرين، كل ذلك جعل الإنسان ينظر بهيبة وإجلال، وجعلها تقترن عنده بهالة من القداسة، وارتبطت بها معتقدات عديدة في مختلف الثقافات والأديان.

الإله الهندوسي «إندرا» يركب على فيل عجائبي ويجوب في السماء

كانت السماء عند أكثر الشعوب القديمة هي العالم والمكان الذي تستقر فيه الآلهة، وعند الشعوب الهندوأوروبية وشعوب الشرق الأدنى القديم، تتكرر صفة «إله السماء» أو «أب السماء»، والذي هو كبير الآلهة وإله السماء الرئيسي، فنجد في الهندوسية «إندرا» إله الحرب والطقس وملك الآلهة ورب السماء، وعند الإغريق، نجد «زيوس»، إله السماء والبرق والصواعق، ويقابله عند الرومان «جوبيتر»، ملك الآلهة الرومانية وإله السماء.

وفي كثير من الثقافات والأديان، كان يُنظر لإله السماء الرئيسي باعتباره آلهة أنثى، كانت تحمل غالباً لقب «ملكة السماء»، كما نجد مع الآلهة «إيزيس» عند الفراعنة، و«عشتروت» عند البابليين، و«إنانا» عند السومريين، و«العزى» عند العرب. وتطوّر هذا المعتقد لاحقاً بأشكال أخرى، كما ظهر في صورة وأوصاف «مريم العذراء» في المسيحية.

الأجرام الآلهة

بالإضافة للاعتقاد بتواجد آلهة في السماء، ظهرت الاعتقادات بألوهية الأجرام السماوية ذاتها، خاصّة الشمس والقمر. كما نجد في عبادة الشمس المنتشرة قديماً، باعتبارها إلهاً أو أحد

«كان الإله «سين» أشهر آلهة القمر وانتشرت عبادته في الشرق القديم حتى اشتق اسم شبه الجزيرة «سيناء» من اسمه»

آلهة السماء، وجاء جانب من التقديس والإجلال لها بسبب كونها مصدر الطاقة والحياة على الأرض.

وفي مصر القديمة، كان الإله «رع» يمثل إله الشمس الرئيسي، وقد نُسجت الأساطير حول رحلة كفاحه الليلية ضد قوى الظلام والشرّ في العالم السفلي بعد غروبه نهاية كل يوم، حتى يستطيع الظهور في صباح اليوم التالي من جديد، فتقول الأسطورة بأنه: كان يركب مركباً مقدساً ويعبر اثني عشرة بوابة، وهي عدد ساعات الليل، مواجهاً الأخطار التي تقابل مركبه حتى يتمكن من عبورها جميعاً. وقد ظهرت صيغ قريبة من هذا المعتقد في أديان لاحقة، كما نجد في الإسلام، حيث نُقل عن النبي - عليه السلام - حديثه لأبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، بأن الشمس تذهب كُلّ ليلة «حتى تسجد تحت العرش»، فإذا أُذن لها عادت لتشرق من جديد، وتبقى كذلك حتى يكون يوم القيامة، فحينها لا يؤذن لها فتخرج من المغرب (صحيح البخاري وصحيح مسلم، بروايات مختلفة).

وكان الإله «سين» أشهر آلهة القمر، وهو الإله في بلاد بابل وآشور، وانتشرت عبادته في أرجاء واسعة من الشرق القديم، حتى اشتق اسم شبه الجزيرة «سيناء» من اسمه.

من الآلهة إلى الملائكة

مع ظهور الديانة اليهودية، ساد الاعتقاد بوحدانية الإله، ولكن بقي الاعتقاد بوجوده في السماء، ويَذكر سفر التكوين قصة بناء «برج بابل»، حين حاول سكان المدينة بناء برج شاهق للوصول إلى الإله في السماء، قبل أنْ يمنعهم الإله من ذلك عندما بلبَلَ ألسنتهم وفرقها، فاختلفوا ولم يتمكنوا من مواصلة البناء.

وبسبب الاعتقاد بالإله الواحد «إلوهيم»، انتهى الاعتقاد بوجود الآلهة العديدة - كما كان الحال في الأديان الوثنية السابقة - وعوضاً عنها تحدثت التوراة عن وجود ملائكة بديلة عنها، وهي موجودة في السماء أيضاً وتقوم بالأدوار المختلفة التي كانت تقوم بها، فهناك ملاك مسؤول عن نزول المطر، وآخر عن الموت، وهكذا، جاء في سفر الملوك: «رأيت الرب جالساً على كرسيّه، وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره»، وفي سفر التكوين: «ونادى ملاك الله هاجر من السماء»، وفيه أيضاً: «ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء».

يواجه إله الشمس «رِع» قوى الظلام العالم السفلي حتى يتمكن من الظهور مجدداً في صباح اليوم التالي

مملكة السماء

في المسيحية، استمرت المعتقدات اليهودية الواردة في العهد القديم، ولكن عِوضاً عن الاعتقاد بوجود «إلوهيم» صار الاعتقاد بوجود «الإله الأب» في السماء، واستمر الاعتقاد بوجود الملائكة في السماء ونزولها منها في حالات محددة.

كما جاءت المسيحية بمعتقدات جديدة متعلقة بالسماء، ومن ذلك ما قاله المسيح حين سأله الحاكم الروماني بيلاطس: «أنت ملك اليهود؟» فأجابه: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا: ١٨)، وجاء تفسير المملكة المقصودة في مواضع أخرى بأنها «مملكة السماء» وهي «الجنة».

ويعتبر حَدَث «قيامة المسيح» حدثاً رئيسياً في المسيحية، وهو الحدث الختامي في حياة يسوع على الأرض؛ حيث صعد إلى السماء بعد صلبه، وهو موجود فيها حتى يجيء موعد نزوله من جديد في آخر الزمان، بحسب المعتقدات المسيحية، جاء في سفر «أعمال الرسل»: «أيها الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إنّ يسوع هذا الذي ارتفع إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء».

يعتقد المسيحيون أن يسوع ارتفع إلى السماء بعد صلبه وهو موجود هناك حتى يحين موعد نزوله

بحسب التوراة حاول سكان بابل بناء برج للوصول إلى الإله في السماء

سبع سماوات طباقاً

وفي الإسلام أيضاً، تكرر الاعتقاد بأنّ الله، عز وجل، موجود في السماء، فجاء في الآية الكريمة بالقرآن الكريم: «أأمنتم من في السماء أنْ يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أأمنتم من في السماء أنْ يرسل عليكم حاصباً» (المُلك)، وفي الآية: «إليه يصعد الكلم الطيب» (فاطر)، وفي حديث الجارية التي سألها النبي عليه السلام: «أين الله؟» قالت: «في السماء»، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة» (صحيح مسلم)، والحديث: «إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا...». وقد اختلفت المدارس الكلامية الإسلامية بين مُثبت للنصوص كما هي، وبين من اختار تأويلها - كالأشاعرة - واعتبارها من المجاز، كما ظهرت اتجاهات صوفية بين المسلمين تجاوزت هذه النصوص وآمنت بأن الله، عز وجل، حالّ في كل مكان من الوجود عُرفت بـ «الحلولية».

وفي قصة شبيهة بقصة برج بابل، ذكر القرآن الكريم قصة فرعون ومحاولة الوصول إلى الإله الذي دعاه موسى وهارون للإيمان به: «وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب».

وتواصل الاعتقاد، في الإسلام، بالملائكة ووجودها في السماء، جاء في الحديث: «أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ؛ ليس فيها مكان إلا فيه ملك قائم، أو راكع، أو ساجد».

يعتقد المسيحيون أن يسوع ارتفع إلى السماء بعد صلبه وهو موجود هناك حتى يحين موعد نزوله

وجاء النصّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم بأنّ الله خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض: «الذي خلق سبع سماوات طباقاً» (المُلك)، وهو اعتقاد تعود بداية ظهوره إلى ديانات بلاد الرافدين، فجاء ذكر السماوات السبع والأرضين السبع لأول مرة في التعويذات السومرية، والتي تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

كما جاء الاعتقاد بأنّ عدداً من الأنبياء رفعوا إلى السماء، كإدريس والمسيح، عليهما السلام. وبحسب المعتقدات الإسلامية، فإن النّبي محمد - عليه السلام - عندما عَرَجَ إلى السماء في «ليلة الإسراء والمعراج»، التقى بعدد من الأنبياء في مروره على السماوات السبع. وتحكي القصّة أنّه عرج على ظهر دابة «البُراق» حتى وصل أعلى مراتب السماء، جاء في الآيات الكريمة: «ولقد رآه نزلة أخرى، عند سِدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربّه الكبرى» (النجم).

وبحسب معتقدات نهاية العالم في الإسلام، فإنّ الناس يُبعثون من قبورهم ثم يرتقون جميعاً إلى السماء في عملية اسمها «النشور»، وهناك تجري أحداث الحشر والحساب.

«جاء النصّ في عدّة مواضع من القرآن بأنّ الله خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض»

حائط البُراق الذي يعتقد المسلمون بأن النبي ربط دابة البُراق إليه قبل أن يمتطيها في رحلته إلى السماء

كما تشير النصوص الإسلامية إلى أنّ مكان وجود الجنة هو في السماء، وبأنّ أعلى طبقة منها هي «الفردوس» والتي يعلوها مباشرةً العرش الذي يستوي عليه الله، عز وجل، جاء في الآية الكريمة: «إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة»، وجاء في الحديث: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

هكذا تفاوتت الأديان والمعتقدات في تفصيل المعتقد والأسطورة المرتبطة بالسماء، ولكنّها بقيت متفقةً على اعتبارها فضاء مرتبطاً بكل ما هو مقدس.

خالد بشير
كاتب أردني

كيف اختلفت الأديان في نظرتها للمال والثروات؟

تفاوتت الأديان في نظرتها للثروة والأموال والموقف من جمعها، وسبل وغايات إنفاقها؛ حيث حمل كل منها ملامح وسمات وقواعد خاصة للتعامل معها، من أوامر ونواه ومستحبات. وكما تطورت المجتمعات البشرية عبر تاريخها، بما في ذلك من تطور لأنظمة الاقتصاد، فإنّ الأديان كذلك تطورت في تعاملها ونظرتها للثروة والمال؛ من لحظة تقديم القرابين في العَراء وعلى مذابح المعابد الوثنية، إلى الجمعيات الخيرية في أشكالها المعاصرة واعتمادها في التمويل على أموال التبرعات والصدقات من المؤمنين.

«مثلت الرهبنة البوذية أولى الدعوات الكبرى للزهد في متاع الحياة فتفرغ للعبادة في أديرة معزولة»

هل الخير في جمع المال والزيادة فيه؟

لم تحمل الأديان والمعتقدات ما قبل الإبراهيمية ملامح لنظرة عامة وموقف متكامل من المال، وذلك يعود بشكل أساسي إلى تأخر ظهور الملكية الخاصّة، ومن ثم الأموال في صيغتها النقدية، باعتبارها قابلة للاكتناز وتجميع الثروات منها، قياساً إلى طول التاريخ البشري؛ حيث اقتصرت المعتقدات على الدعوة لإنفاق أقدار محددة من الممتلكات الطبيعية المحيطة، وفي مناسبات خاصّة، بحيث كان الربط حاضراً بين فكرة التضحية بجزء من الممتلكات والثروة في مقابل نيل رضا الآلهة ودفع غضبها وعقابها، ومع تطور الحضارات ظهرت المعابد الدينية كما في حضارة ما بين النهرين وعند الإغريق والرومان، والتي تم تخصيص جانب من النفقات لرعايتها وعمارتها.

اليهودية.. دعوة للاستزادة في إطار الجماعة

ومع ظهور التوراة، النصّ الديني لأول ديانة إبراهيمية، بدأت تظهر لأول مرة ملامح رؤية وقواعد دينية لتعامل المؤمن مع الثروة؛ حيث وضعت التوراة تصوراً للتاريخ يقوم على اعتبار الإنسان مستأنفاً لعملية الخلق التي بدأها الربّ، وهي بذلك لم تعطِ قيمة سلبية للحياة في هذا العالم؛ فالإنسان لم يولد في الخطيئة، والاستمتاع في هذه الحياة ليس أمراً منكراً أو مكروهاً، وإنما دعت اليهودية أتباعها للتمتع بالحياة، ولكن هذه الدعوة لم تأتِ على المستوى الفردي، وإنما هي تدعو لذلك في إطار القوم والجماعة، والتي هي الجماعة اليهودية المنحدرة من نسل يعقوب وابنه اسحق؛ حيث تدعو وتبشر التوراة بإقامة بني يعقوب مملكتهم والتي تجعلها بمثابة الشرط والغاية لإتمام الخليقة وإنهاء التاريخ، ونجد ذلك صريحاً في نبوءات دانيال في سفر دانيال، وقوله: «والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويُطيعون» (الإصحاح السابع، ٢٧).

وما يعنينا هنا هو الإشارة إلى غياب المنظور الزُهدي الداعي إلى التقلل من متاع الحياة وحرمان النفس من الثروة،

مثلت الرهبنة البوذية أولى الدعوات الكبرى للزهد في متاع الحياة

وهي النظرة المخالفة التي سادت لدى أديان أخرى عديدة، واشتهرت في الأديان الآسيوية، كما نجد في البوذية والتي كانت من أولى الديانات الكُبرى الداعية للتقلل والانسحاب من العالم الخارجي والاتجاه نحو الاعتناء والانشغال بعالم النفس الداخلي، وهو ما نراه في ولادة الرهبانية البوذية قبل غيرها.

المسيحية.. المملكة في السماء

وبالانتقال إلى المسيحية، ثاني الديانات الإبراهيمية، نجد أنفسنا أمام تحول كبير في النظرة إلى العالم الدنيوي مقارنةً بالمنظور اليهودي، فقد أكد المنظور المسيحي على فكرة كون البشر مولودين في الخطيئة الأولى، كما أكدت نصائح المسيح لأتباعه على ضرورة اجتناب الحياة الدنيا والدعوة إلى إهمال شأنها والاهتمام بالحياة الآخرة التي أكد أنها هي الملكوت الحق الذي يَعِد أتباعه به، ومن ذلك قوله: «بِع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعني. فلم يقبل الشاب، فقال يسوع: يعسر أن يدخل غني ملكوت الله، ولَدخول الجمل في ثقب إبرة أيسر من دخول الأغنياء ملكوت الله» (متى، الإصحاح ١٩، ٢١-٢٢)، وقوله: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا، ١٨، ٣٦)، وهكذا فإن المسيحة نقلت المملكة اليهودية الموعودة في نهاية الزمان وجعلتها في العالم الآخر.

ويمكن قراءة النظرة المسيحية للحياة والدعوة للانسحاب منها والتقلل من متاعها باعتبارها رد فعل وانعكاساً لما كان سائداً من مظاهر الترف والثراء الفاحش في زمن المسيح؛ حيث كانت الامبراطورية الرومانية آنذاك قد بلغت أوجها وأطبقت ملكها

«اعتبر جون كالفن بأن المسيحي النشيط هو الذي يخدم الله وإخوانه من خلال عمله ونشاطه»

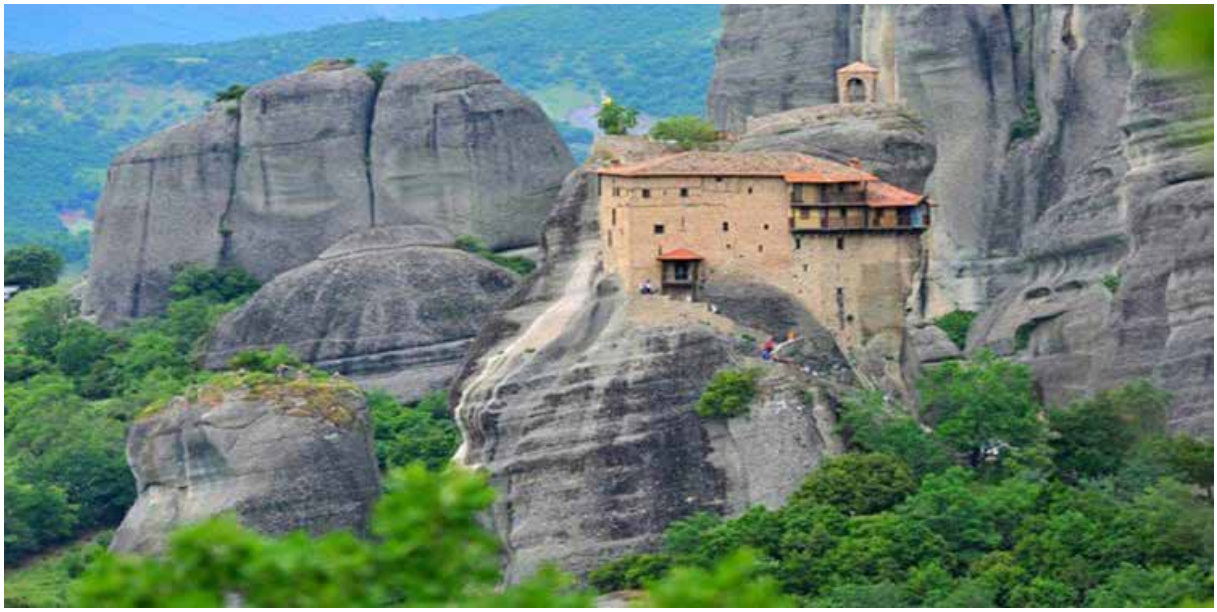

هجر الرهبان المسيحيون العالم الدنيوي وتفرغوا للعبادة في أديرة معزولة

على كامل حوض البحر المتوسط، فجاءت المسيحية لتدعو إلى الانسحاب من الحياة والانضباط والزهد، وقد تبلورت هذه النظرة في الإطار الكاثوليكي في أشد صورها؛ حيث نشأ عن الكاثوليكية نموذج صارم من الرهبانية يقوم على اعتزال الحياة تماماً في أديرة منعزلة، فيهمل الرهبان أجسادهم ويقسون على أنفسهم ويحرمونها من كل متاع، وذلك كنوع من التوجه نحو الاهتمام بالعالم الروحاني فقط والذي هو المدخل إلى الملكوت السماوي الذي دعا المسيح أتباعه إليه، وبذلك فإنّ المنظور الكاثوليكي قد تأسس على هذا الفصل التامّ الصارم بين الروح والجسد، وهو ما انتهى بالدعوة إلى إهمال الجسد لحساب تزكية الروح، وبالتالي الدعوة للزهد وعدم الاكتراث بالثروة والمال.

المسيحي النشيط

وقد ظلّ هذا المنظور سائداً طوال قرون حتى ظهرت حركات الإصلاح خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي احتجت على الفاتيكان معقل الكاثوليكية، لتعرف وتتبلور لاحقاً في إطار الكنيسة البروتستانتية (الاحتجاجية)، والتي اتجهت منذ بدايتها إلى الاختلاف التام مع المنظور الكاثوليكي للحياة الدنيا، فدعت إلى منظور جديد يقوم على اعتبار العمل فعلاً

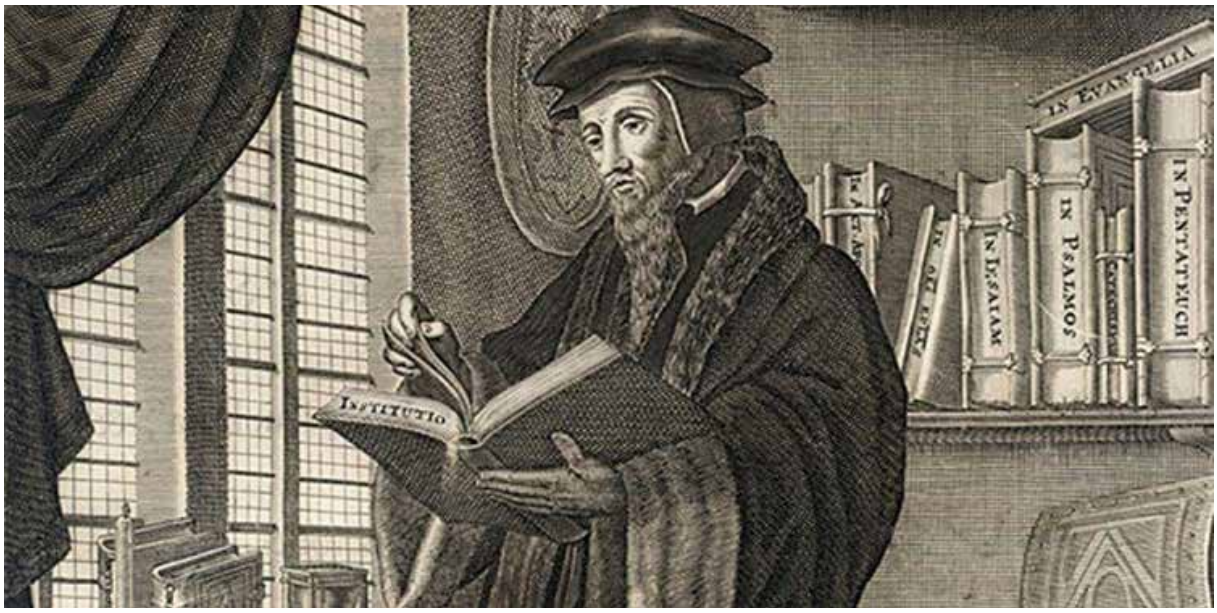

اعتبر جون كالفن بأن المسيحي النشيط هو الذي يخدم الله وإخوانه من خلال عمله ونشاطه

تعبدياً؛ حيث اعتبر المصلح كالفن بأنّ المسيحي المؤمن هو «المسيحي النشيط» الذي يخدم الله وإخوانه من خلال عمله ونشاطه، وأنّ هذه الخدمة هي الطريق للملكوت السماوي، وهكذا تم تجاوز التعارض الكاثوليكي بين العمل الدنيوي والملكوت الأخروي.

وقد بلور عالم الاجتماع الألماني الشهير، ماكس فيبر، أطروحة كاملة تبحث في المعتقدات البروتستانتية، ذهب فيها إلى اعتبار أنّ البروتستانتية هي الأساس الذي مهد لقيام الرأسمالية، وذلك في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»؛ حيث رأى بأنّ الفكر البروتستانتي قد انعكس على حركة المال والتجارة في البلدان التي انتشر فيها بداية من ألمانيا وإنجلترا، وفيما بعد في أوساط المهاجرين إلى العالم الجديد في أمريكا الشمالية. وبذلك فإنّ البروتستانتية وما تفرّعَ عنها كانت بمثابة ثورة على المنظور الكاثوليكي للحياة، نتج عنها اتجاه الأتباع نحو الاهتمام بالعالم الدنيوي المحيط بهم، بما في ذلك من جمع للمال والثروة.

الإسلام.. المال رزق ونعمة إلهية

وكان الاسلام؛ ثالث الديانات الإبراهيمية، أقربَ إلى المنظور البروتستانتي الأخير، وإن كان قد سبقه بقرون عدّة، فلم يتجه الإسلام إلى ما ذهبت إليه المسيحية الكاثوليكية من التفريق التام بين عالم الروح والجسد بل إنّ الإسلام تأسس على الجمع والتأليف بينهما، كما نجد في الحديث: «وفي بضع أحدكم صدقة»؛ فهو يجعل الشهوة والمادة سبيلاً للأجر

«اتجه الإسلام نحو تثبيت نسك التضحية وأوجبه في مناسك الحج في العاشر من ذي الحجة»

والثواب، وقد تأكد ذلك مع التشديد على عدم تشريع الرهبانية، كما جاء في قوله: «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» (الحديد، ٢٧).

وقد تكرر في القرآن اعتبار المال والثروة بمثابة رزق ونعمة من الله، ينبغي شكره عليها، كما في قوله: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله» (البقرة، ١٧٢)، فهذه الثروات والممتلكات ليست مذمومة ولا مدنسّة، إنما هي منح وعطايا من الإله، وقد دعا إلى إظهار النعم، فقال: «وأما بنعمة ربك فحدث» (الضحى، ١١)، وقال النبي: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وإن كان الإسلام قد شدد في النهي عن التبذير والإسراف، فقال:»إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» (الإسراء، ٢٧)، كما يذهب الإسلام إلى اعتبار الرزق والعطاء بمثابة استخلاف من الله، ومن ذلك قوله:»وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (الحديد، ٧).

كما دعا الإسلام إلى السعي في طلب الرزق، فقال: «واسعوا في مناكبها وكلوا من رزقه» (المُلك، ١٥)، وأكد على ضرورة العمل وإتقانه فجاء في الحديث: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، ونهى عن الاتكال وسؤال الناس، فقال: «اليد العُليا خير من اليد السفلى»، وبذلك يتضح لنا كيف أنّ الإسلام خالف المنظور المسيحي، فلم يعارض أبداً مبدأ العمل وطلب الرزق وجمع الثروة، وأكد على عمارة الأرض، ونهى عن الإفراط في التعبد والزهد، وهو ما كان ظاهراً منذ بداية الإسلام، فنجد عدداً من صحابة الرسول، عليه السلام، من أصحاب الثروات، بدءاً بزوجته خديجة، وأقرب الصحابة كأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف.

القرابين.. الأشكال الأولى للإنفاق

كانت الدعوة للإنفاق من الممتلكات والثروة حاضرة منذ المعتقدات الدينية الأولى، وقد تمثلت في الأديان ما قبل الإبراهيمية بشكل أساسي في مشهد تقديم القرابين والتضحية، فكانت الجماعة تحضر أثمن ما تملك وتقوم بتقديمه كقرابين للآلهة، طلباً لنيل رضاها ونيل الخير والرحمة منها، ودفعاً لبلائها وعقابها، وذلك اعتقاداً منهم بتحكمها بقوى الطبيعة، فعند

تقديم القرابين البشرية عند الفينيقيين

الشعوب الزراعية المعتمدة على تساقط المطر، كما في حوض المتوسط، ارتبط طقس الافتداء وتقديم القربان بحالات الجفاف وانحباس المطر، وهو ما نجده في المعتقدات الفينيقية والكنعانية، وعند شعوب الحضارات النهرية كان يتم تقديم القرابين لتفادي حالات الطوفان، كما نجد في قربان «عروسة النيل» عند الفراعنة.

وقد بدأ تقديم القرابين بذبح الحيوانات، ثم بلغ ذروته مع تقديم القرابين البشرية، والتي اعتبرت بمثابة أصدق تأكيد على استعداد الجماعة للتضحية بأثمن ما تملك في سبيل نيل رضا الآلهة. ويُسعفنا اللفظ العربي «القربان» في فهم الدلالة والمغزى المقصود منه، فهو تقرب من الآلهة وطلب لرحمتها.

تقديم القربان البشري عند شعب الازتيك لإله الشمس

لوحة: الملاك يوقف إبراهيم عن ذبح ابنه

وقد تعددت التفسيرات في سبب الربط بين إسالة الدماء وتحقيق الحاجات، ومن ذلك الاتجاه الأنثروبولوجي الذي يجد في مشهد الولادة أصلاً وتفسيراً لذلك؛ حيث ربط البشر بين الخصب والعَطاء وبين إسالة الدماء، وهو ما تطوّر إلى الربط بين تقديم القربان وطلب الخير واتقاء الشر.

الأديان الإبراهيمية.. تجاوز القرابين

لم تتجه الأديان الإبراهيمية، بداية من اليهودية، نحو القطع التام مع طقوس القرابين، فقد أقرّ العهد القديم بفكرة التضحية واعتبر أنها لا بد أن تكون من الحيوانات خاصّة، ونجد ذلك في قصة قايين وهابيل (قابيل وهابيل): «قايين قدم من ثمار الأرض قرباناً للرب. وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانِها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر» (تكوين، ٤، ٣-٥)، حيث تؤكد القصة أنّ الرب تقبل القربان الحيواني ولم يتقبل القربان المقدم من ثمار الأرض. وكذلك ذكر العهد القديم رضا الرب بعد قيام نوح بتقديم الذبائح من الحيوانات التي ركبت معه السفينة بعد نهاية الطوفان، قال: «وتنسّم الرب رائحة الرضا» (التكوين، ٨، ٢١).

ومن أهم ما حملته الأديان الإبراهيمية من تطوير وتعديل في القرابين كان الاتجاه اليهودي نحو إنهاء القرابين البشرية، كما جاء في قصة افتداء اسحق بالكبش، بعد أن عزم إبراهيم على ذبحه: «ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم. فقال: هأنذا. فقال: لا تمد يدك إلى الغلام

اتجه الإسلام نحو تثبيت نسك التضحية وأوجبه في مناسك الحج في العاشر من ذي الحجة

ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه» (التكوين، ٢٢، ١٠-١٣).

حيث اعتبرت هذه الحادثة بمثابة انتهاء عصر القرابين البشرية كما أقرّت الأديان الإبراهيمية، وهو ما أكدت عليه المسيحية أيضاً بطريقتها، حين اعتبرت أنّ حادثة صلب المسيح هي الافتداء البشري الوحيد، والذي قدمه الرب حين افتدى بالابن من أجل تخليص البشرية من الخطيئة. في حين تابع الإسلام ما ذهب إليه العهد القديم، واستحضر من جديد قصة إبراهيم وابنه، وإن كان الاختلاف هو جعل اسماعيل في مكان إسحاق، كما جاء في قوله: «وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم» (الصافات: ١٠٤-١٠٧).

كما اتجه الإسلام نحو تثبيت نسك التضحية، وأوجبه في مناسك الحج في العاشر من ذي الحجة، في يوم عيد الأضحى الذي يرتبط بذبح الأضاحي عند المسلمين، كنوع من المحاكاة وإعادة التمثيل لحادثة افتداء اسماعيل. وإضافة إلى الأضحية ثبت عن النبي سنة تقديم «العقيقة»، والتي تتشابه في الغاية منها مع القرابين في الأديان القديمة؛ فهي تقدم عند قدوم مولود أو امتلاك وسيلة ركوب أو شراء منزل جديد، وذلك طلباً لدفع الضرر عنه وطلباً من الله لحفظه وصونه، وقد أكد النبي، عليه السلام، هذه الغاية في الحديث: «مع

«تابع الإسلام اليهودية والمسيحية، فشَرَع الزكاة وأوجبها وجعلها من أركان الدين الخمسة»

الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الاذى».

تطوّر في أشكال الإنفاق

وكان من أهم ما تطور مع الأديان الإبراهيمية هو الاتجاه نحو ابتكار أشكال جديدة من الإنفاق؛ حيث ظهرت مع اليهودية لأول مرة زكاة الأموال، والتي هي عبارة عن دفع نسبة محددة من الثروة لغاية أداء نسك ديني، وقد جاء بيانها في العهد القديم: «وكل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب؛ قُدُسٌ للرب» (لاويين، ٢٧، ٣٠)، و«وأما كل عشر البقر والغنم فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قدساً للرب» (لاويين، ٢٧، ٣٢). وقد خصصت الشريعة اليهودية الأموال من أجل الإنفاق على الهيكل وسدنته من «اللاويين»، إضافة إلى جزء مخصص لأصحاب المناصب الدينية وآخر خاص بإطعام الحجاج وضيافتهم.

أما الديانة المسيحية فقد خلت من التشريعات بما في ذلك الزكاة، ولكنها ذكرت إنفاق المال في سياق دعوتها لأداء الخير ونشر المحبة والسلام؛ حيث جاء الإنفاق في المسيحية تحت مسمى الصدقات، والتي دعا المسيح أتباعه لإنفاقها في عدة مواضع من العهد الجديد، كقوله: «وأما أنت فمتى صنعت صدقةً فلا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يُجازيك علانية» (متى، ٦، ٣-٤). وقد ربطت المسيحية هذه الصدقات - كما فعل الخير- بنيل الأجر والثواب في الآخرة، وهو المنطق الذي تأسست الفلسفات الأخلاقية الحديثة على مخالفته ونقده، كما نجد عند كانط ونيتشه، واتجاههما نحو التأكيد على انطلاق الفعل والخُلُق الإنساني من دوافع ذاتية خاصة دون انتظار أجر ومُقابل.

وقد تابع الإسلام اليهودية والمسيحية، فشَرَع الزكاة وأوجبها وجعلها من أركان الدين الخمسة، كما دعا إلى الإنفاق في سبيل الله وبذل الصدقات، انطلاقاً من اعتبار المال بمثابة نعمة ورزق من الله وثروة استخلف الله عباده فيها، ما يوجب عليهم شكره من خلال الإنفاق منها في أوجه الخير، قال: «وآمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (الحديد، ٧).

«يرى نقاد أنّ المصارف الإسلامية لا تختلف من حيث الجوهر والنتيجة عن عمل نظيرتها المعتمدة للفوائد»

وقد اختلفت الزكاة في الإسلام عنها في اليهودية، في وظيفتها والغرض منها وتفاصيل أدائها؛ حيث صار لها في الإسلام وظيفة ودور اجتماعي، فقد نصّ القرآن على مصارف محددة للزكاة، وذلك في قوله: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين وابن السبيل والعاملين عليها...» (التوبة: ٦٠)، وبالتالي فقد حملت هذه المصارف أبعاداً اجتماعية بحيث أصبح الهدف من الزكاة هو تحقيق التكافل الاجتماعي وجسر الهوة بين الأغنياء والفقراء، وإعانة الفقراء والمساكين، ومداولة الأموال بين أفراد المجتمع، كما جاء في حكمة توزيع الفيء: «لكي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (الحشر، ٧)، وبالتالي منع اكتناز وتكديس الثروات عند فئات دون غيرها، كما قال: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» (التوبة، ٣٤).

كما جاءت الدعوة في القرآن إلى تخصيص نسبة (الخُمس) من الأموال التي يتم اغتنامها في الحروب لله ورسوله، قال: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول»، وقد تطورت هذه النسبة إلى أن تحولت عند المسلمين الشيعة إلى تشريع ثابت تجاوز الحروب والغنائم، وفي ذلك يقول مرتضى العسكري في كتابه (معالم المدرستين): «هذه الآية وإن كانت قد نزلت في مورد خاص، ولكنها أعلنت حكماً عاماً وهو وجوب أداء الخمس من أي شيء غنموا لأهل الخمس. ولو كانت الآية تقصد وجوب أداء الخمس مما غنموا في الحرب خاصة، لكان ينبغي أن يقول عز اسمه: واعلموا أن ما غنمتم في الحرب». ويُقسّم الخمس عندهم إلى نصفين: نصف للمحتاجين، والآخر يسمى «سهم الإمام»، والذي يُدفع إليه في عصر الحضور، وفي عصر الغيبة يُدفع إلى المراجع الدينية الذين هم في مقام النائب للإمام.

المال المحرّم

وقد اشتملت الشرائع الدينية على تحريم أنواع معينة من الأموال تبعاً لطرق اكتسابها، وهو ما نجده في اليهودية التي نصت على تحريم الربا عند التعامل به بين اليهود، في حين أباحته عند التعامل مع الغرباء: «لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا، لكي يباركك الرب إلهك» (تثنية ٢٣: ١٩-٢٠).

«اختلفت الزكاة في الإسلام عنها في اليهودية في وظيفتها والغرض منها وتفاصيل أدائها»

وخلافاً لذلك اتجهت المسيحية إلى تأكيد التحريم بشكل قطعي وفي جميع الحالات، فقد جاء في سفر المزامير: «السالك بالكمال، والعالم بالحق والمتكلم بالصدق في قلبه. فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البري» (١٥، ٢-٥)، وفي سفر حزقيال: «الإنسان الذي كان باراً وفعل حقاً وعدلاً. لم يعط بالربا ولم يأخذ مرابحة، وكف عن الجور وأجرى العدل. حياة يحيا يقول السيد الرب» (حزقيال ١٨، ٥-٩).

وقد أدت إباحة اليهودية لأتباعها التعامل بالربا مع الغرباء، وتحريم المسيحية له، إلى نشوء أدوار خاصة باليهود في أوروبا، حيث أصبحوا مختصين بالإقراض المقترن بالفائدة (الربا)، وهو ما تطور عنه لاحقاً نشوء البنوك بصيغتها الحديثة، والتي كان لليهود منذ نشأتها حضور مسيطر فيها، وهو ما أدى إلى مراكمة عدد نسبة منهم الثروات، وما أدى لاحقاً إلى تأجيج المعاداة ضدهم.

أما في الإسلام، فقد نصّ القرآن على تحريم أشكال عدة من المال، كأكل أموال اليتيم، والميسر (القمار)، كما حَرّم الربا في مواضع عدة، كقوله: «الذين يأكلون

رسم كاريكاتيري يعبر عن شكلية اختلاف المصارف الإسلامية عما سواها

الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا» (البقرة، ٢٧٥)، وقوله: «وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون بها وجه الله فأولئك هم المُضعفون» (الروم: ٣٩). وقد أدى هذا التحريم اليوم إلى ظهور مصارف «إسلامية» حاولت إيجاد طرق وأساليب للالتفاف على المعاملات المعتمدة على الفائدة، من خلال تطوير الصيغة الشرائية المعروفة بـ «المرابحة»، في حين يرى العديد من النقاد أنها ظاهرة رأسمالية ولا تختلف من حيث الجوهر والنتيجة عن عمل نظيرتها المعتمدة للفوائد.

وهكذا فقد تباينت الأديان في نظرتها للمال وما أقرته من تشريعات ووصايا بخصوصه، فاختلفت في جوانب وتشاركت في أخرى، وقد استطاعت الأديان مواكبة التطورات والتحولات الاجتماعية، واليوم توجد مؤسسات وجمعيات ذات صيغ وأشكال معاصرة تقوم على تطبيق هذه التشريعات الدينية، من وزارات الأوقاف إلى صناديق الحج والزكاة واستثمار أموال الأيتام، إلى الجمعيات الخيرية، وكثيراً ما يتم توظيف مثل هذه المؤسسات لأهداف سياسية واقتصادية، سواء من قبل حركات وجماعات أو من قبل الدول؛ حيث تزداد الحاجة اليوم لإعادتها إلى دورها ورسالتها الأساس المتعلقة بنشر الرحمة والعدالة في العالم.

خالد بشير
كاتب أردني

تقلّد المناصب: هل تنظر الأديان بعين التمييز بين الرجل والمرأة

أثيرت في السنوات الأخيرة قضية إمامة المرأة وجوازها في الإسلام، وذلك بعد إقدام عدد من الناشطات النسويات على هذه الخطوة، التي رأى الكثيرون بأنّها غير مسبوقة، وقد فتحت هذه القضية باب التساؤل حول أسباب إشكالية وصول المرأة إلى المناصب الدينية بشكل عام، ليس فقط في الديانة الإسلامية، وإنما في مجمل الديانات، وتحديداً الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

ففي الإسلام، تختفي المرأة الإمامة، أو المرأة الخطيبة، وحتى المرأة «النبية»، وفي اليهودية تأخر ظهور الـ «حاخامات» حتى السبعينيات من القرن الماضي، ولا تزال أعدادهن قليلة، وكذلك في المسيحية، حيث لا نجد مثلاً «ماما» (كما يوجد بابا)، وحتى في المراتب الكنسية الأدنى، تأخر تقلّد النساء لها حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكاد ينحصر لمدة طويلة في أمريكا الشمالية، في حين لا تزال الصعوبات تواجه

«محمد بن راشد: الاقتصاد بحاجة للمعرفة، والسياسة بحاجة للحكمة، والأمم بحاجة للتعلم.. وكل ذلك موجود في الكتاب.. واليوم لدينا صرح يضم ملايين الكتب لتطوير مسيرتنا التنموية»

اليوم النساء المسيحيات لتقلد المراتب في مختلف أنحاء العالم. كل ذلك يفتح التساؤلات حول مكانة المرأة في الأديان، خصوصاً عند مقارنتها مع ما كانت عليه في معتقدات وأساطير سابقة، وصلت فيها الأنثى إلى منزلة الألوهة.

الدين والثقافة والمجتمع

تزداد أهمية البحث في موضوع مكانة المرأة في الأديان باعتبار ما للعامل الديني من تأثير في ثقافة المجتمعات، وبالتالي ما ينعكس على مجمل البُنى الاجتماعية؛ حيث لا يتوقف حرمان المرأة من تقلّد المناصب على المناصب الدينية فقط، وإنما يمتد للمناصب الأخرى.

اليوم، لا تزال المرأة – في مجتمعات عديدة حول العالم – بعيدة عن الوصول إلى المناصب، وإن كانت قد تمكنت في بعض المجتمعات من الوصول إلى مناصب قيادية مهمّة، ووصلت إلى منصب رئاسة دول. ولكن، لا تزال هناك العديد من الصعوبات التي تواجه المرأة في مختلف المجتمعات والدول؛ فإذا نظرنا إلى نسبة النساء اللاتي يشغلن منصب رئيس دولة أو رئيس وزراء اليوم، سنجد أنّ النسبة لا تتجاوز الـ ١٠٫٧٪ (في ٢١ دولة من أصل ١٩٥).

تبلغ ظاهرة ابتعاد المرأة عن تولّي المناصب القيادية ذروتها في الدول العربية والإسلامية؛ فمن أصل ٥٧ دولة إسلامية لا يوجد سوى رئيسة وزراء واحدة، في بنغلادش. بل إنّ المرأة تواجه صعوبات وعوائق ثقافية واجتماعية حتى للوصول إلى مناصب الوزارة، ومقاعد المجالس البرلمانية، في العديد من الدول العربية والإسلامية، ودائماً ما يتم تدعيم هذه الظاهرة وشرعنتها بفتاوى وقواعد تتحدث عن حرمة واستكراه تولي المرأة لمناصب القيادة والولاية العامة.

فما موقف الأديان من وصول المرأة إلى القيادة وتقلدها المناصب؟

«شيخة حسينة واجد» رئيسة وزراء بنغلادش منذ عام ٢٠٠٩

التوراة والتأسيس لتبعية المرأة

تعد الديانة اليهودية، الأقدم بين الديانات الثلاث، وبالنظر إلى النص التوراتي، المرجع الأساس للديانة، نتجه إلى المواضع التي تناولت المرأة وقيمتها، لنقف على الأسباب وراء عدم وصول المرأة إلى المراتب الدينية عبر التاريخ اليهودي الطويل.

التوراة بدايةً تجعل من خلق حواء - التي تمثل بداية جنس النساء وأصله - تابعاً لجنس الذكور (الذي يمثل أصلُه آدم)؛ حيث تشير التوراة إلى أنّ الرب خلق آدم، ثم ارتأى خلق حواء تباعاً، فقد جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٢، السطر ١٨): «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره». وعندما تمت عملية خلق حواء جاءت من جزء منه، ومن أحد عظامه: «فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت» (التكوين، ٢، ٢٣)، وهو ما يأتي في سياق تأسيس تبعية المرأة للرجل.

لا تقف التوراة عند ذلك، وإنما تجعل من حوّاء المسؤولة عن نزول آدم وبنيه من الجنة ونعيمها إلى الأرض وشقائها، جاء في سفر التكوين: «فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت» (التكوين، ٣، ١٢)، وبحسب التوراة فإنّ عقاب حواء كان بتأكيد تبعيتها للرجل وجعلها وسيلة لإشباع رغبات الرجل، وتخصيص دورها في الحَمل والولادة، وجعل الرجل يسود عليها: «وقال للمرأة:

«تزداد أهمية البحث في موضوع مكانة المرأة في الأديان باعتبار ما للعامل الديني من تأثير في ثقافة المجتمعات»

تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجُلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك» (التكوين، ٣، ١٦)، وتؤسس هذه الحكاية لتدني رتبة المرأة الإجتماعية وتحديد مسؤولياتها، وإبعادها عن القيادة، وحصر أدوارها في الأدوار المنزلية الضيقة، بعيداً عن أي دور قيادي.

لا يتوقف نقصان المرأة في التوراة عند تخصيص وحصر أدوارها والتأكيد على تبعيتها للرجل، وإنما هي تنتقص منها في مواضع أخرى، كما في اعتبار المرأة نجسةً عند حيضها: «وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً» (اللاويين، ١٥، ٢٠)، وتأكيداً على انخفاض منزلتها بالنسبة للذكر تجعل التوراة من فترة نجاسة المرأة عند ولادة الأنثى ضِعف فترة النجاسة بعد ولادة الذكر، فتقرر: «إذا حبلت المرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام... وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين» (اللاويين، ١٢، ٢-٥)، وكل ذلك يأتي في إطار الإنقاص من قيمتها وتقرير تدني منزلتها الاجتماعية عن الرجل.

لتتعلم المرأة بسكوت

في المسيحية، كان النص صريحاً في إقصاء المرأة عن تولي المناصب الدينية، فقد جاء في العهد الجديد، عند السؤال عن تعلّم المرأة وتعليمها: «لتتعلم المرأة بسكوت، في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة ان تُعلّم ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء، وآدم لم يغوِ، لكن المرأة أُغويت فحصلت في التعدي» (تيماثاوس الأولى، ٢، ١١-١٤)، وقد اعتُمدت هذه الإجابة لمنع المرأة من الوصول للمناصب الكنسية عبر التاريخ المسيحي، وبالنظر إلى التعليل (لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء، وآدم لم يغوِ، لكن المرأة أُغويت)، نجد بأنّ الإنجيل يتابع الموقف التوراتي من المرأة في التأكيد على تبعيتها، ويأتي ضمن هذا السياق أيضاً ما جاء في سفر «كورنثوس الأولى» من العهد الجديد: «فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسَه، لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يُخلَق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل» (الإصحاح ١١، ٧-٩).

حصلت ليرنر على جائزة «جوان كيلي» التي تمنحها الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٨٦ عن كتابها «نشأة النظام الأبوي»

المرأة في الإسلام.. طاعة أم تبعية؟

تمحورت تبعية المرأة والحدّ من دورها في الإسلام حول الحديث المتداول «ناقصات عقلٍ ودين»، والذي فسرّت به علّة عدم مساواة المرأة بالرجل واعتبارها بمثابة نصفه، سواء في الشهادة أمام القاضي، حيث تكون شهادة الرجل بشهادة امرأتين، أو عند توزيع الميراث؛ حيث يساوي سهمها نصف سهم الرجل، عند تساوي درجة القرابة من المُتوفى، وهو ما يُفسَّر أيضاً بكوْن «الرجال قوامون على النساء»، ولكن هذا التفسير الأخير يرسخ ويؤكد - من حيث لا ينتبه القائلون به - تبعية المرأة وإبعادها عن العمل والانخراط في المجال وحصر دورها في الحيز الخاص (المنزل)، وما يتضمنه ذلك من حصر دورها في تدبير شؤون المنزل وتنشئة الأولاد، وهو ما تدعمه نصوص أخرى يستشهد بها، كـ «وقرن في بيوتكن» و» صلاتك في دارك خير...».

ويأتي في باب تأكيد تبعية المرأة ما ورد من أحاديث في باب طاعة المرأة لزوجها - عند رغبته في جِماعها - كـ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ونصوص تتحدث عن الطاعة بشكل عام كـ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وهكذا فإنّ القول بنقصان القدرة العقلية للمرأة وبأنها «عاطفية بطبعها»، ينتهي إلى حرمانها من الوصول للمناصب باعتبارها غير قادرة على التعقل، والتفكير، وضبط العاطفة، وبافتراض أنّ

«اعتبر علي تركي الربيعو أن تطور منظومة الزواج كان له الدور الأكبر في تحقيق الهيمنة الذكورية»

الرجل هو القادر على ذلك، وتدعيماً لهذا التفسير يتم الاستشهاد بنص آخر وهو «لن يُفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة»، وبالأخص عند طرح قضية تولي المرأة المناصب العُليا.

مقاربات تفسيرية

تذهب أكثر التحليلات لتفسير ظاهرة تدني مكانة المرأة في الديانات الثلاث إلى تبنّي مقاربتين متقاطعتين إلى حد كبير: الأولى أنثروبولجية، تبحث في نشأة النظام الأبوي (البطريركي) وترى بأنّ اليهودية وما تلاها من ديانات إبراهيمية، تبنّته وأقامت تمييزها بين الجنسين على أساسه، والمقاربة الثانية تتجه نحو مقارنة الأديان والبحث في تاريخها، وتعود إلى الأديان والمعتقدات التي عرفها الإنسان منذ مطلع العصر الحجري الحديث (النيوليت) مع الثورة الزراعية (١٠،٠٠٠ ق.م.).

يأتي في مقدمة المقاربات الأنثروبولوجية ما قدمته غيردا ليرنر، مؤرخة وأستاذة في جامعة وسكنسون، في كتابها الصادر عام ١٩٨٦ «نشأة النظام البطريركي»؛ حيث ذهبت ليرنر إلى أنّ تطور النظام الذكوري بدأ منذ ألفي عام قبل الميلاد، وهو ينبني على فكرة أنّ الرجال والنساء خُلقوا على نحو مختلف، ولهدفين مختلفين، وأنّ الرجال يمتلكون ذهناً مفكراً، وذكاءً، وقدرة على القيادة، ومن ثمّ من المقدَر عليهم أن يمثلوا النظام والحكم، فيما يُنظر للنساء كونهن أقلّ على المستوى الفكري، ولذلك يجب أن يخضعن، ويصبحن متكلات على الرجال، لافتةً إلى أنه في فترة ألفي سنة من التاريخ المسيحي، اعتُنقت هذه الأفكار كأنها أوامر إلهية وأصبحت متضمنة في المنظومة التربوية الغربية على جميع المستويات.

أما علي تركي الربيعو، فقد اعتبر - في كتابه «العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية» – أن تطور منظومة الزواج كان له الدور الأكبر في تحقيق الهيمنة الذكورية؛ حيث رأى أنّ الزواج «هو شكل ثقافي ووليد صيرورة تاريخية وتطور تاريخي طويل، وهو قد جاء خدمة لمصالح نظام اجتماعي ذكوري، ويقود إلى أن تنزل المرأة في المرتبة الإجتماعية، لتنعزل في البيت، فتفقر بانحصارها في الإطار المنزلي إلى حرية الوصول إلى أنواع السلطة أو المركز أو القيمة الثقافية، التي هي من امتيازات الرجل».

ماريا فيتوريا في مراسم ترسيمها كأول قسيسة في تاريخ إيطاليا

وأما في السياق العربي، فيتحدث إبراهيم الحيدري، في كتابه «النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب»، عن سيطرة نظام المشيخة في مرحلة ما قبل الإسلام، الناتج عن علاقات اجتماعية-اقتصادية خاصة بنمط الإنتاج الرعوي، يقوم على العصبية القبلية التي تستند على نظام القرابة وصلة الدم؛ حيث يتماهى الفرد مع القبيلة التي تحميه وتكون مسؤولة على الصعيد الاجتماعي والسياسي عن كل فرد من أفراد القبيلة، وكما يسيطر الشيخ على أفراد القبيلة، يسيطر الاب على أفراد الأسرة، ويسيطر الأخ على أخته، باعتباره الحامي لها.

أما المقاربة التي اتجهت نحو تاريخ الأديان ومقارنتها، فكان في مقدمة التفسيرات ما ذهب إليه خزعل الماجدي، في كتابه «كتاب إنكي: الأدب في وادي الرافدين»، من أنّ الثقافات الأولى التي ظهرت في شمالي العراق، مع بداية العصر الحجري الحديث، كانت زراعية فلاحية، سادت فيها المرأة كزعيمة، وعُبدت فيها الإلهة الأم، ثم جاءت الانعطافة النوعية الثانية التي جاء فيها اكتشاف المعادن، وبدء عصر الكالكوليت (العصر الحجري النحاسي) الذي انتقل مسرح الحضارة فيه إلى جنوب العراق، وكانت جميعها ذات طبيعة مدينية حرفية، وساد فيها الرجل كزعيم للقوم وظهر الإله الذكر.

تجاوز الإرث الطويل

لم يمنع الإرث الطويل المرأة من المناصب، من ظهور المحاولات والخطوات المبادرة من قبل نساء آمنّ بالمساواة، وبأن التفريق والتفاضل لا يكون على أساس الجنس، وإنما بالعلم والعبادة.

رُلى عادل سليمان.. اول قسيسة عربية في التاريخ

كانت الديانة المسيحية، وخصوصاً الكنائس الحديثة، كالإنجيلية، والميثودية، والبروتستانتية، في الولايات الأمريكية الشمالية، قد شهدت أولى التطورات على صعيد تولية المرأة للمناصب، وكان ذلك خلال القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨١٥، تم ترسيم «كلاريسا دانفورث» كقسيسة في كنيسة تابعة لإحدى الطوائف المعمدانية في إقليم نيوإنجلاند. وفي عام ١٨٥٣ رُسّمت «أنطوانيت بلاكويل» في منصب قسيسة في الكنيسة المجمعية في نيويورك.

أما في القارة الأوروبية فقد تأخر وصول النساء حتى القرن العشرين، وجاء أول تنصيب لإمرأة في العام ١٩١٢، حيث تم ترسيم «أوليف وينشستر» في إحدى الكنائس التابعة للكنيسة الإنجيلية في إنجلترا. وفي فترات لاحقة من القرن العشرين وصلت عدد من النساء إلى مناصب في كنائس أوروبية مختلفة، ولكنها كانت خارج الفضاء الكاثوليكي، حيث شددت الكنيسة الكاثوليكية على أن «ترسيم المرأة مضاد لإرادة المسيح الذي اختار رجالاً فقط ليكونوا حواريه». بالرغم من ذلك، وفي العام ٢٠١٠ أصبحت ماريا فيتوريا أولى إيطالية بمنصب قسيس في كنيسة كاثوليكية، وإن كانت الكنيسة من طائفة كاثولويكية صغيرة منشقة عن الكنيسة الكاثوليكية المرتبطة بالفاتيكان، وقد لقيت خطوتها معارضة واحتجاجاً كبيرين من قبل الفاتيكان.

أما على الصعيد العربي، فقد تأخر وصول النساء إلى المراتب الكنسية حتى

بولين بيبي أول حاخام إمرأة في أوروبا

العام ٢٠١٧، حين رسمت اللبنانية رلى عادل سليمان في ٢٠١٧/٢/٢٦ قسيسة في الكنيسة الإنجيلية، لتكون بذلك أول قسيسة عربية في التاريخ.

وانحصرت الرتب التي وصلتها النساء في الكنيسة عند رتبة القسيس، ولم تصل النساء إلى مرتبة الأسقف إلا عام ١٩٨٠ عندما عُينت مارجوري ماتيوس أسقفاً لكنيسة ميثودية، في حين شهد العام ١٩٨٤ أول تعيين لأسقف إمرأة لكنيسة رئيسية هي الكنيسة الميثودية الموحدة. أما خارج الولايات المتحدة فكانت «بيني جاميسون» أول إمرأة تصل إلى رتبة الأسقف، وذلك في الكنيسة الانجيلية بنيوزلندا عام ١٩٩٠. وفي أوروبا فكانت «ماريا جيبسن» أول من وصل لرتبة الأسقف، في إحدى الكنائس الإنجيلية بألمانيا عام ١٩٩٢.

أما في الديانة اليهودية، فقد شهد الثلث الأخير من القرن الماضي تحولاً كبيراً، مع ترسيم «سالي بريساند» الحاخام الأولى في الولايات المتحدة عام ١٩٧٢، و»جوان فريدمان» في كندا عام ١٩٨٠. و»كارين سوريا» في أستراليا عام ١٩٨١. في حين تأخرت الخطوة في أوروبا حتى العام ١٩٩٠، عندما أصبحت «بولين بيبي» أول حاخام في فرنسا.

أما في الإسلام فباستثناء وجود ظاهرة محلية من المساجد النسائية في غرب الصين، غابت النساء طوال القرن العشرين عن محاولة الإمامة أو الخطابة، ومع مطلع القرن الحادي والعشرين، وفي العام ٢٠٠٥، كانت الأمريكية المسلمة «أمينة ودود» هي أول مسلمة معاصرة تؤم المصلين في مسجد عام، لتتبعها بعد ذلك

أمينة ودود.. أول مسلمة معاصرة تؤم المصلين في مسجد عام

عـدد مـن المحـاولات، كان أبرزهـا خطـوة السـويسرية مـن أصـل يمـني «إلهـام مانـع»، الـتي خطبـت المصلـين في مسـجد بزيـورخ عـام ٢٠١٢، ثـم جـاءت خطـوة الدانماركيـة مـن أصـل سـوري «شـيرين خانـكان» والـتي أسسـت مـع مجموعـة مـن الناشـطات مسـجد نسـوي أطلقـن عليـه «مسـجد مريـم» عـام ٢٠١٦، حيـث أمّـت وخطبـت خانـكان في افتتـاح المسـجد، وجـاءت آخـر الخطـوات البـارزة، مـن ألمانيـا، مـن قبـل «سـيران آطيـش»، الألمانيـة مـن أصـل تـركي، والـتي أسسـت «المسـجد الليـبرالي» في برلـين، لتـؤمّ فيـه النسـاء، وتقـام في الصلـوات المختلطـة. ولكـن يبقـى أنّ كل تلـك المحـاولات جـاءت في بـلاد غربيـة، في حـين لا تـزال المـرأة المسـلمة تواجـه صعوبـات عديـدة، اجتماعيـة وثقافيـة، للإقـدام عـلى مثـل هـذه الخطـوة في العالـم العـربي.

هل المرأة ذات طبيعة مختلفة؟

أسـس مبـدأ تبعيـة المـرأة للرجـل، وتحديـد دور المـرأة في إطـار الحـيز الخـاص، مـع إرفـاق ذلـك باعتبـار المـرأة ذات طبيعـة مختلفـة، تقـلّ فيهـا القـدرات العقليـة عمّـا يملكـه الرجـل، أسـس كل ذلـك لحالـة مـن الإبعـاد للمـرأة عـن تـولي المناصـب الدينيـة الهامّـة في الأديـان المختلفـة. ولكـن ومع ظهور حـركات تجديديـة داخـل الفضـاءات الدينيـة، انطلقـت مـن التأكيـد عـلى تغـير الظـروف وتحـول الأدوار الاجتماعيـة للجنسـين، للتأكيـد عـلى ضرورة تحقيـق المسـاواة بـين الجنسـين في المجـال الديـني، وهـو مـا انعكـس بتمكّـن عـدد مـن النسـاء مـن الوصـول إلى تقلـد مناصـب دينيـة في الديانـات الثـلاث.

خالد بشير
كاتب أردني

ما أسباب اهتمام الأديان بشَعر الرأس واللحى؟

عندما بدأ القيصر بطرس الأعظم حملته التحديثية في روسيا بداية القرن الثامن عشر، كان حلْق شعر اللحى لرجال الدين الأرثوذوكس إحدى الخطوات الأولى التي اتخذها في تلك الحملة.

هكذا، بدا شَعر اللحية بالنسبة للقيصر حداً تاريخياً فاصلاً بين الحداثة والتقليد. بينما تُخبرنا البيولوجيا الحديثة بأنّ الشعر هو مجرد زوائد بروتينية تظهر على جسم الثدييات، فكيف امتلك هذا الجزء العضوي من الإنسان كل تلك القيمة والرمزية؟ وإذا كانت الأديان من أهم المنظومات الرمزية عند البشر، فكيف نظرت الأديان المختلفة لشعر الرأس والوجه؟ وما هي أهم الأحكام الدينية بخصوصه؟

يهود يمنيون من طائفة حبّان ويظهر إطالتهم لشعر الرأس وتغطيته

الشعر الطويل للرجال.. أحكام دينية مختلفة

حثّت تعاليم الديانة اليهودية على إطالة الشعر عند الرجال وعمله على شكل جدائل، وهي التي تعتبر أحد العلامات المميزة لليهود «الحريديم» (المتدينون)، وذلك تفسيراً منهم للأمر التوراتي «لاتقصّروا رؤوسكم مستديرا» (سفر اللاويين)، كما أن هناك نهياً وارداً في العهد القديم بخصوص حلق الشعر: «لا يجعلوا قرعة في رؤوسهم، ولا يحلقوا عوارض لِحاهم» (سفر اللاويين).

وبالإضافة إلى إطالة الشعر، هناك تعاليم توجب تغطيته، عبر وضع القبعة، أو ما يسمى في العبرية بـ «الكيباه»، وخصوصاً أثناء تأدية الصلاة. فقد ذكرت

«الشعر مجرد زوائد بروتينية تظهر على جسم الثدييات فكيف امتلك هذا الجزء العضوي من الإنسان كل تلك القيمة والرمزية؟»

تحوّلت صورة خطّاب بشعره الطويل إلى أيقونة بين الجهاديين

التوراة عن داود وأنبياء آخرين أنهم كانوا يغطون رؤوسهم، وجاء في شروحات التوراة، في «الهالاخاه»، أن التغطية تعتبر دليلاً على توقير الله، عز وجل، وأنه «لا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه مكشوفاً».

أما في المسيحية، فتميزت الكنيسة الأرثوذوكسية بإطالة الشعر عند الرجال، وهو ما فُسّر في جانب منه بأنه متابعة للتعليمات اليهودية، كما أنّ الشعر المقصوص كان منتشراً عند الوثنيين من الرومان، فأرادت الكنيسة التأكيد على مخالفتهم عبر إطلاق الشعر، كما نجد بأن جميع رسومات المسيح تصوّره بأنه صاحب شعر طويل.

وفي الإسلام، تعتبر إطالة الشعر للرجال، سُنة ثابتة، وتشبّهاً بهيئة الرسول، عليه السلام، الذي تنقُل الأحاديث أنّ شعره «كان يصل إلى منكبيه». وقد انتشرت هذه العادة بين الشعوب المسلمة، إلى حد أنه مما يذكر في التاريخ، أنه بعد سقوط الأندلس، كان الشعر الطويل سبباً كافياً للشك بأنّ صاحبه من المسلمين، وبالتالي إرساله إلى محاكم التفتيش الإسبانية.

كل من يحلق شعر رأسه في الديانة السيخية يعتبر مرتداً عن الدين

أما اليوم فقد تُركت هذه العادة عند المعظم، وأصبحت إطالة الشعر علامة مميزة لفئات محددة من المتدينين، كما نجد عند «الجهاديين» مثلاً، وتشتهر بينهم صورة المقاتل «خطّاب» بشعره الطويل، التي تحوّلت إلى ما يشبه الأيقونة المناظرة لـ «تشي غيفارا» عند الثوار العلمانيين.

وباتت عادة إطلاق الشعر اليوم «مرفوضة دينياً» عند قطاع واسع من المسلمين؛ أحياناً تعتبر من باب «التشبه بالنساء»، وفي أحيان أخرى يُتهم الشباب مطيلو الشعر بأنهم من «عَبَدة الشياطين»، حيث باتت مثل هذه المظاهر مرتبطة بتقليد ممارسات غربية.

أما حلق الشعر، فهو في الإسلام شرطٌ من شروط التحلّل من الإحرام للمعتمر والحاج. في المقابل يستنكر المسلمون حلقات معيّنة، كحلقة «القزع»، التي تأخذ جزءاً من الشعر وتترك آخر، وترد أحاديث تنصّ على النهي عنها. كما يتم اعتبار حلقات أخرى من قبيل التشبه بـ «الكُفّار»، كما نجد في الفتوى الشائعة خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي بالنهي عن حلقة «المارينز» الخاصّة بالقوات البحريّة الأمريكية.

«جاء في شروحات التوراة أنّ التغطية تعتبر دليلاً على توقير الله ولا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه مكشوفاً»

أما أشدّ الأحكام المتعلقة بالشعر، فجاءت في الديانة السيخية؛ حيث توجد عقيدة «الكيش»، أحد الركائز الخمسة في الديانة، ومفادُها وجوب إطلاق الشعر منذ الولادة حتى الوفاة، وكل من يحلقه يصبح مرتداً عن الدين؛ لأنه يغير بذلك من خلق الله، فيعمد الرجال إلى تصفيفه في لفائف فوق رؤوسهم، ومن ثم تغطيتها بالعمائم المميزة للسيخ.

وعلى خلاف الأديان السابقة، فَرَضَت التعاليم البوذية حلق الشعر على الرهبان، كجزءٍ من نظام الرهبنة؛ لأن قيام الراهب بإطالة الشعر سيزيد من تعلقه بمظهره وجماله، في حين تسعى البوذية إلى التخلص من أي حالة تعلّق بشيء خارجي.

شعر المرأة.. التغطية واجبة

ينتشر ارتداء الحجاب عند النساء المتدينات في اليهودية، وقد جاء في شرائع «المشناة»: «ما الذي يعدّ انتهاكاً لشريعة موسى؟ الجماع عند حيضها. ما الذي يعدّ انتهاكاً للعرف اليهوديّ؟ الخروج برأس مكشوف». بينما وردت أحكام أخرى في «التلمود» تؤكد فرض الحجاب على المرأة المتزوجة، حتى أنه يُمنع الصلاة في مكان توجد فيه امرأة متزوجة حاسرة الرأس.

وفي المسيحية، جاء في رسالة بولس إلى أهالي كورنثيوس: «وأما كل امرأة تصلّي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى، فتشين رأسها؛ لأنها والمحلوقة شيء واحدٌ بعينه». و«المحلوقة» هنا المقصود بها «العاهرة»؛ حيث كان العُرف السائد في زمن ظهور المسيحية هو تمييز العاهرات عبر حلق شعورهن. وقد اختلفت تفسيرات هذا الحكم، فبعض الطوائف كـ «الأميش» تفرض الحجاب بشكل دائم، وبعضها الآخر كالأرثوذكسية والكاثوليكية، تفرضه على الراهبات في الكنيسة فقط.

أما في الإسلام، فتُجمع المدارس الفقهية على وجوب حجاب الرأس على المرأة البالغة؛ حيث يعتبر شعرها جزءاً من «العورة». وفي الصلاة يجب تغطية شعر الرأس بشكل كامل. وعبر التاريخ كان الحجاب

تفرض طائفة الآمش ارتداء الحجاب للنساء بشكل دائم

عند المسلمين وسيلة لتمييز النساء الحرائر عن الإماء. كما وردت الفتاوى الفقهية التي تستنكر قيام المرأة بحلق وتقصير شعر رأسها، باعتبار ذلك عادة جاهلية عند البعض، فيما اعتبر آخرون بأنه نوع من التشبه بالرجال وتغيير خلق الله.

اللحى.. قداسة وطهارة

ارتبطت صورة رجل الدين المسنّ في الشرق الأقصى باللحية الطويلة البيضاء، كما نجد عند حكماء الكونفوشيوسية والطاوية، ودائماً ما تصوّر الرسومات «لاوتسه» مؤسس الطاوية بلحيته الطويلة البيضاء؛ حيث اقترنت اللحية عندهم بالحكمة والوقار. وفي شبه القارّة الهنديّة، نجد أغلب الكهة الهندوس لا يفضّلون حلقها، ويعتبرون إعفاءها علامة على الطهارة. وفي السيخية، كما الشعر، تعتبر اللحية جزءاً لا يتجزأ من الجسم عند الذكور، ويجب تركها كما خلقها الله.

أما في الشرق الأدنى، فنجد في التوراة الأمر: «لا يجعلوا قرعة في رؤوسهم، ولا يحلقوا عوارض لحاهم» (سفر اللاويين)، كما وردت اللحية في وصف أشكال الأنبياء: «مثل الدهن الطيب على الرأس، النازل على اللحية، لحية هارون، النازل إلى طرف

تصوّر الرسومات «لاوتسه» بلحية بيضاء طويلة

ثيابـه» (مزامـير داود). وهـو مـا تمسّـك بـه الأحبـار ورجـال الديـن اليهـود، فالتزمـوا بإطـلاق اللحـى.

وفي المسيحية، نجـد متابعـة اليهوديـة، حيـث اعتـبرت التعاليـم بـأن الله خلـق اللحية لتميـيز نـوع الذكـور عـن الإنـاث. واتفقـت جميـع رسـومات المسـيح عـلى تصويـره عـلى أنـه صاحـب لحيـة متوسـطة الطـول. وارتبطـت إطالـة اللحـى بشـكل أكـبر برجـال الديـن في الكنيسـة الأرثوذوكسـية، وعنـد طائفـة الآميـش في الولايـات المتحـدة، أمـا الكنيسـتان؛ الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية فكانتـا أكـثر تسـاهلاً، بـل إنّ الكاثوليكيـة قـررت تحريمهـا.

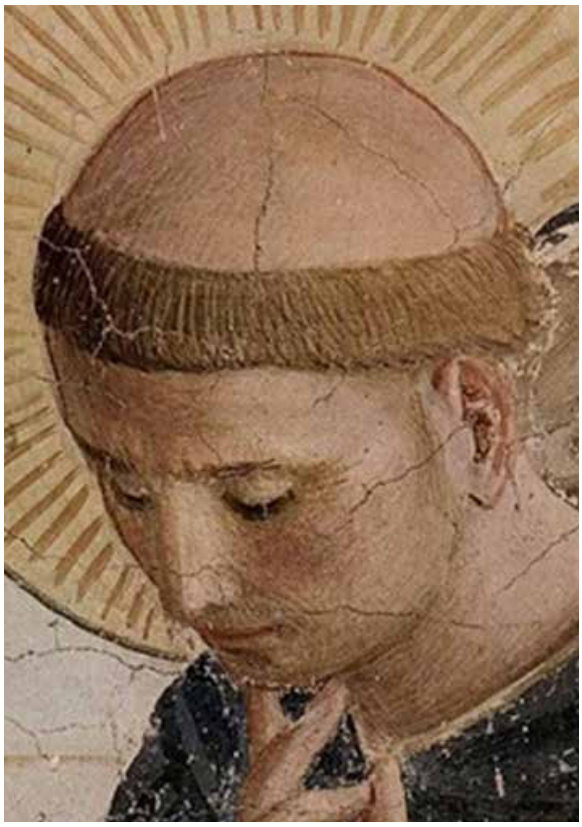

بـدأ الاتجـاه نحـو الحلـق في الكاثوليكيـة كنـوع مـن التمييـز والمخالفـة لطبقـة الفرسـان والنبـلاء

كان الاتجـاه نحـو الحلـق في الكاثوليكيـة قـد بـدأ ضمـن سـلوكيات التبتـل وكنـوع مـن التميـيز عـن طبقـة الفرسـان، والنبـلاء، والإقطاعيـين، الذيـن كانـوا يطيلـون لحاهـم،

ملصق دعوي يدعو الرجال المسلمين إلى اعفاء اللحى وحفّ الشوارب

ثـم جـاء فـرض الحلـق في الكاثوليكيـة منـذ القـرن الحـادي عـشر، ضمـن «الحرومـات» الـتي أعلـن عنهـا الكاردينـال «هامـبرت» العـام ١٠٥٤، بعـد وقـوع الانفصـال التـامّ بين الكنيسـتين؛ الشرقيـة والغربيـة، كنـوع مـن التميـيز والانفصـال.

أمـا في الإسـلام، فـوَرد ذكـر اللحيـة في القـرآن عـلى لسـان هـارون: «قـال يـا ابـن أم لا تأخـذ بلحيـتي» (طـه ٩٤). وجـاء في حديـث النـبي، عليـه السـلام،: «خالفـوا المشركـين؛ وفـرّوا اِللحـى، وحفّـوا الشـوارب». فكانـت علّـة الإطـلاق هـي مخالفـة المشركـين، وفي روايـات أخـرى للحديـث «اليهـود والنصارى». واعتـبرت اللحيـة عنـد الزُهـاد دليـلاً عـلى التقـوى، وضبـط النفـس. وعنـد الفقهـاء، اعتـبر سـلوك «إعفـاء اللحـى» إحـدى سـنن الفطـرة العـشر.

واليـوم، تعتـبر اللحيـة مكوّنـاً أساسـياً في صـورة «الشـيخ»، المسـلم المتديّـن المعـاصر، ويتفـاوت شـكل اللحيـة عنـد المتدينـين؛ حيـث يميـل المنتمـين للحـركات الإسـلامية إلى تحديدهـا وتشـذيبها، في حـين يفضـل السـلفيون إطلاقهـا.

ومهمـا اختلفـت في الأحـكام، تبقـى السِّـمة المشـتركة بـين الأديـان في رؤيتهـا للحيـة باعتبارهـا مسـألة رمزيـة تتجـاوز حـدود الشـكل المـادي، وتسـتوجب بذلـك إصـدار الأحـكام والأوامـر.

خالد بشير
كاتب أردني

الدمّ سائل الحياة: كيف نظرت له الأديان والمعتقدات؟

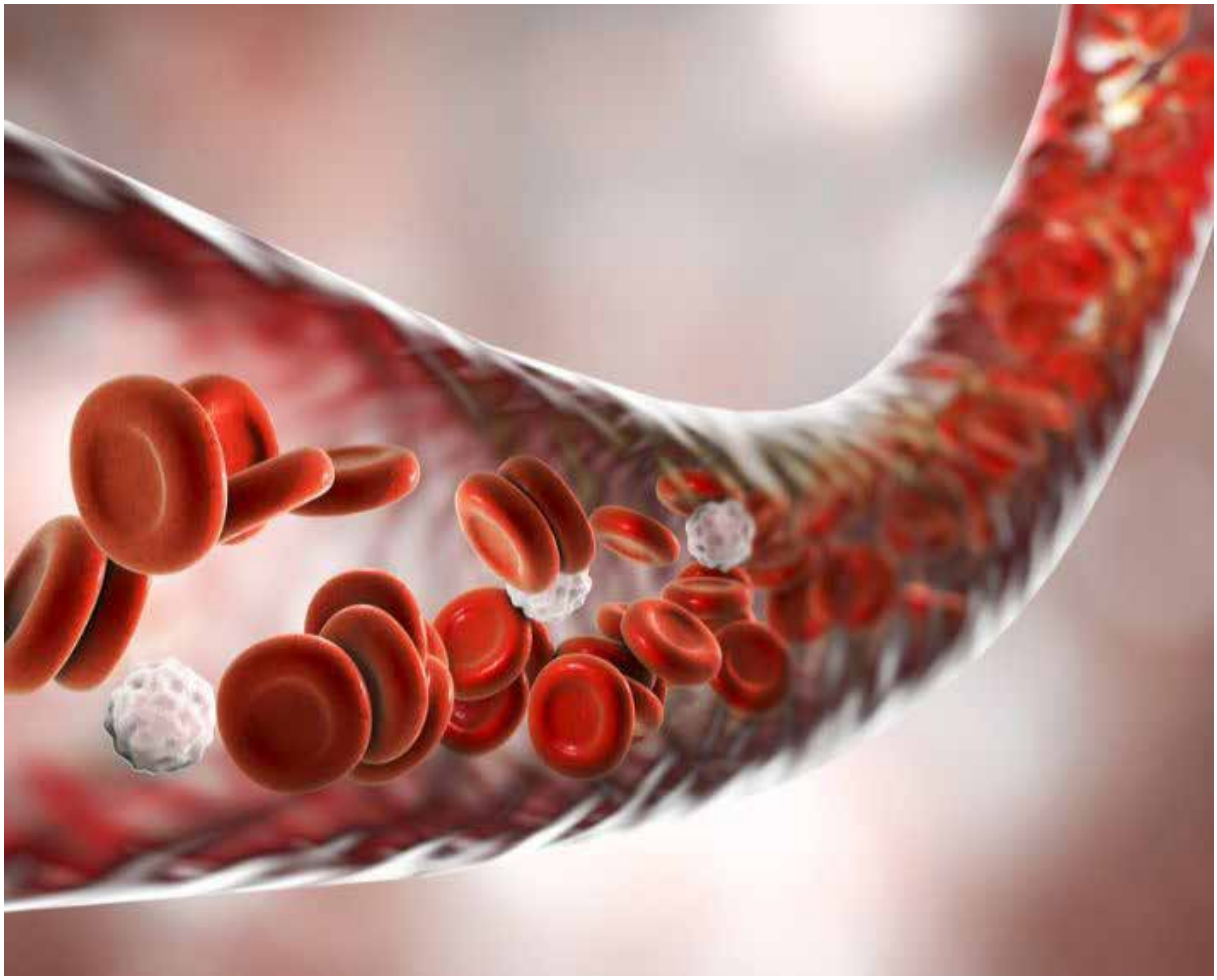

لطالما لفتَ انتباهَ الإنسانِ ذلك السائلُ المائع، المميّز بلونه الأحمر القاني، الدّم الذي ارتبط بالحياة؛ حيث إنّ خروجه من الجسم يعني خطراً داهماً يهدّد حياة الشّخص النازف، وخروج كمية كبيرة منه يعني حتماً؛ الموت. وقد تفاعلت الأديانُ والثقافاتُ مع هذا السائل، فأنتجت بخصوصه قيماً واعتباراتٍ خاصّة.

الشهادة.. دماء من صنف خاصّ

اكتسبت الدّماءُ طابعَ القداسةِ من المنظور الدينيّ في عدد من الحالات، وأهمّها حالةُ الشهادة، حينَ تسيلُ دماءُ المؤمن، في سبيل إيمانه ودينه.

« أقرّت اليهوديةُ القربانَ الحيوانيّ ومبدأَ إسالة الدّماء في سبيل نيل رضا الإله»

تطوّرتْ فكرةُ الشّهادةِ في اليهودية، في عهد مقاومةِ عمليّة نشر الثقافة «الهيلينية» (الإغريقية) زمن السلوقيين، ولكنْ دونَ تطوّرِ قيمةٍ خاصّةٍ بالدّماء. وهو ما اختلفَ مع ظهور المسيحية، وتحديداً في حادثة صلب المسيحِ وسفك دمهِ على الصليب، وما تلا ذلك من حالات قتل وتعذيب لأتباع المسيحية، زمنَ الرومان، حيثُ ذُكرتْ دماءُ المسيح في عدة مواضعَ من العهد الجديد، ورُبط بينها وبين تحقيق المغفرة، ومن ذلك ما جاء على لسان الرسول بولس، قوله: «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة».

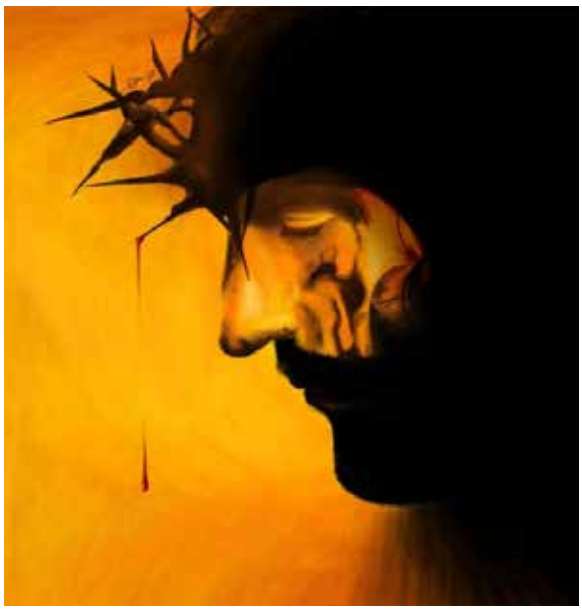

ذكرت دماء المسيح في عدة مواضع من العهد الجديد ورُبط بينها وبين تحقيق المغفرة

في الإسلام، أكّد القرآن الكريمُ على علوّ مكانة الشهيد، وجعل الشهداء بمكانة الأنبياء والصدّيقين. كما أكّدت أحاديث الرسول، عليه السّلام، على المكانة الخاصّة لدماء الشهداء، ومن ذلك أنّ دم الشّهيد يطهّر صاحبَهُ من كل الذّنوب، قال عليه السّلام: «إنّ أول ما يُهْراق من دم الشهيد يغفر له ذنوبه»، وأضيفتْ لدماء الشّهداء سِمَات وصفات خاصّة، كما في قوله، عليه السّلام: «والذي نفسي بيده لا يُكلَم أحد في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك»، ولهذا فإنّ التشريعات الاسلامية تنهى عن غسل وتكفين الشهداء. وقد تطوّرت هذه الصّفاتُ والاعتباراتُ في المعتقدات الشّعبية لدى المسلمين، فترسّخ الاعتقاد بأنّ جثة الشهيد لها صفات خاصة؛ فهي لا تتآكل والدماء لا تجفّ منها.

وعند الشيعة تمّ إعطاءُ قيمةٍ كبيرة لدماء الحسين، رضي الله عنه، حيثُ باتتْ رمزاً للتضحية والمطالبة بحقوق آل البيت، وتطوّر، في المعتقدات الشعبية الشيعية، معتقدٌ بأنّ هناك صخرة في مقام الحسين لا تزال تنضحُ الدّم منذ حادثة كربلاء حتى

آثار الدماء على صخرة بمسجد النقطة في حلب يعتقد أنه تم وضع رأس الحسين عليها

هـذه السـاعة. وظهـرتْ قيمـةٌ خاصّةٌ للدّمـاء في أديـان لاحقـة، كمـا عنـد السّـيخ، مـع تقديمهم للشـهداء في مواجهتهـم مـع المسـلمين المغول خـلال القـرن السـادس عـشر.

الأضحية.. إسالة الدّماء طلباً لرضا الإله

تطـورتْ فكـرةُ القرابـين والأضاحـي منـذ الأديـان مـا قبـل الإبراهيميـة، فكانـت الجماعـة تحـضر أثمـن مـا تملـك وتقدّمـه كقرابـين للآلهـة، فـإنْ كان حيوانـاً أو بـشراً ذبحَتْـهُ وسَـفَحت دمـه، بحيـث تـمّ الرّبـط بـين مشـهد نـزول الـدم وتحقيـق رضـا الإلـه، وبذلـك تتحقّـق حاجاتهـم ومطالبهـم.

تعـدّدت التفسـيراتُ في سـبب إنشـاء هـذا الربـط، فمنهـا مـا أعـادهُ إلى ربـط البـشر بـين خصوبـة المـرأة ونـزول الدمـاء منهـا، وهـو مـا تطـوّر إلى الربـط بـين إسـالة دم الذبيحـة وتحقُّـقِ الخـير.

وأقـرّت اليهوديـةُ القربـانَ الحيـوانيّ ومبـدأَ إسـالةِ الدّمـاء في سـبيل نيـل رضـا الإله، كمـا ظهـر في قصـة قابيـل وهابيـل الـواردة في العهـد القديـم؛ حيـثُ تؤكّـدُ القصـةُ أنّ الـرّبَّ تقبّـلَ القربـانَ الحيـوانيّ ولـم يتقبـل القربـان المُقـدَمَ مـن ثمـار الأرض، وكذلـك ذكـرَ العهـد القديـم رضـا الـرّب بعـد قيـام نـوح بتقديـم الذبائـح مـن الحيوانـات الـتي ركبـت معـه السـفينة بعـد نهايـة الطوفان، «وتنسّـم الـرب رائحـة الرضـا» (التكويـن، ٨، ٢١).

في المسـيحية، جـاء تقديـمُ القربـان في اتجـاه معاكـس، مـع تقديـم الـرّب لابنـه مـن

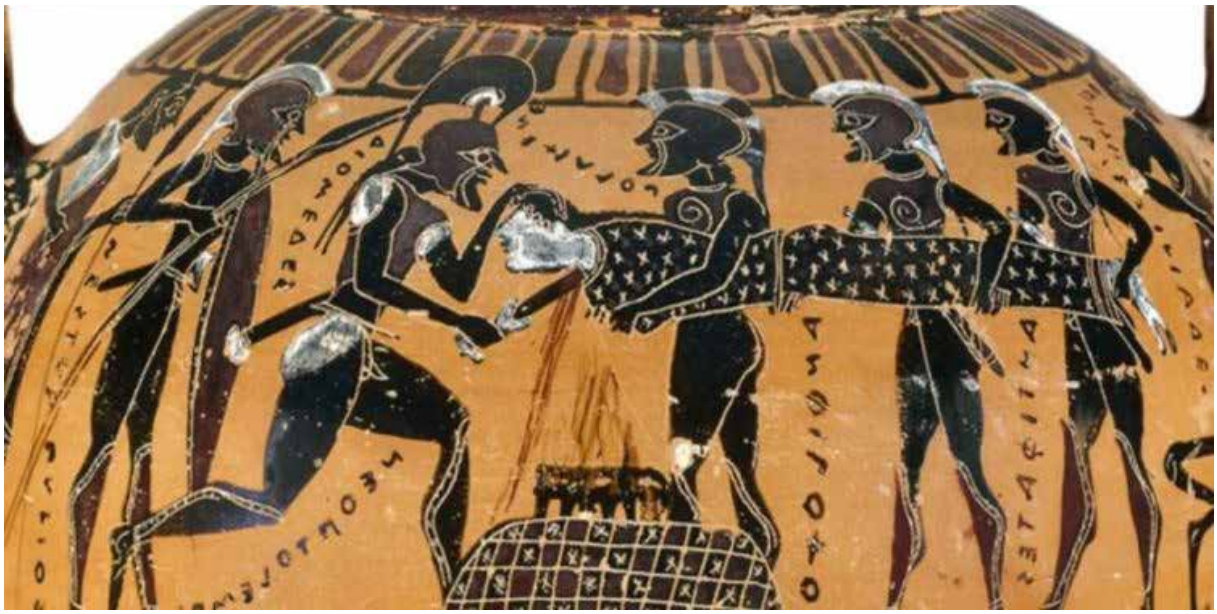

ربط القدماء بين مشهد نزول الدم وتحقيق رضا الإله

«يتميّز الإنسان عن غيره من الكائنات في مدى تعقيد ما يُسبِغ من قيم رمزية ومعنوية على الموجودات في محيط»

أجل تخليص البشرية من الخطيئة، وربط بين نزول دم المسيح وتحقيق المغفرة، فجاء في رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين: «وكلّ شيء تقريباً يَتَطَهّر حسب الناموس بالدم، وبدون سفك دم لا تحصلُ مغفرة». وفي سفر اللاويين: «لأنّ نفس الجسد هي في الدم، فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم، لأنّ الدم يُكفّر عن النفس».

وفي الإسلام، اعتُبرت الأضحيةُ سُنّة، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها، وجاء الأمر القرآني للنّبي، عليه السّلام، بالنّحر في قوله: «فصلّ لربك وانحر» (الكوثر،٢)، كما جاء النصّ على الدماء في قوله تعالى: «لنْ ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم» (الحج،٣٧)، فتمّ التأكيد على مخالفة الفعل الوثني عند العرب قبل الإسلام، حين كانوا يضعون الدماء على الآلهة اعتقاداً منهم بأنها بذلك ستنالها وتصل إليها، فاعتبر القرآن الكريم بأنّ نزول الدّماء فعلٌ رمزيٌ يعبّر عن الامتثال لأوامر الله تعالى.

ظهرت بمصر عادة غرس اليد في دم الأضحية ثم وضعها على جدران المنازل لدرء الحسد

وفي مصر، ظهرت عادةٌ خاصةٌ متعلقة بالأضاحي، وهي غرس اليد في دم الأضحية بعد ذبحها، ومن ثم وضعها وترك آثار الدماء على أبواب وجدران المنازل، أو على السيارات. وذلك اعتقاداً بأنها تطرد الحسد، أو أنها تُذهب العقم وتفتح أبواب الرزق، وتشفي من الأمراض بحكم بركتها.

جراح القديسين.. تكريم وامتياز

وفي المسيحية، ظهر تأويلٌ فريدٌ للدماء؛ حيثُ تمّ تفسير الجروح والندبات على أجساد القديسين بأنها نوع من الكرامة والامتياز، عُرفت باسم خاص هو «الستيغماتا» أو «آثار الصلب»، فاعتبرت هذه الجراح بأنها جراح المسيح عند صلبه، وأنّ ظهورها في أجساد القديسين هو عبارة عن مشاركة للمسيح في آلامه من خلال تجسّد جراحاته فيهم.

ساد اعتقاد بأنّ اليهود يحضرون طفلاً بعيد الفصح ويستخدمون دمه لعجن الخبز

تم تفسير الجراح في أجساد القديسين باعتبارها مشاركة للمسيح في آلامه

دم الحيض.. «وكلّ من مسّها يكون نجساً»

في المقابل، ظهرت اعتبارات مغايرة لأنواع أخرى من الدماء، حيث تمّ التعامل مع الدم باعتباره مدنساً، وأشهرها «دم الحيض». وبعد أنْ كان السّائد في الأديان والمعتقدات القديمة اعتبارُ دماء الدورة الشهرية تعبيراً عن الحياة والعطاء، جاء التحوّل مع الديانة اليهودية، حيث تمّ اعتباره نجساً ومدنساً، يُدنِس كل ما حوله، وينبغي اجتنابه، والاغتسال منه، فجاء في سفر اللاويين: «وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسّها يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء، وكل من مسّ متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجساً إلى المساء ... وإن اضطجع معها رجلٌ فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام» (سفر اللاويين، الإصحاح ١٥).

وجاءت الفكرة السابقة في الإسلام حيث ورد في الآية الكريمة: «ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله» (البقرة، ٢٢٢)، كما تُمنع الحائض من طواف البيت الحرام، ومن الصلاة، والصوم، وتؤمر بقضاء الصوم لاحقاً دون الصلاة، تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: «كنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة».

الدم.. الطعام المحرم

سادت النظرة قديماً للدّم باعتباره سائل الحياة، وهو ما دفع بشعوب عديدة للإقدام على تناوله وشربه، طلباً للقوة، أو تعبيراً عن الانتقام من العدو بعد قتله، ولكنّ الديانة اليهودية أكدّت على مخالفة ذلك، فجاء في سفر التكوين: «غير أنّ لحماً بحياته لا تأكلوه»، وفي سفر التثنية: «احترز أنْ لا تأكل الدم؛ لأنّ الدم هو النفس»، وهنا كان التعليل باعتبار نفس الكائن الحي تكمن في الدم، فبقيت النظرة له باعتباره سائلاً بطابع مميز، ولكنْ مع تحريم أكله من منطلق ديني، خلافاً لما كان شائعاً بين الشعوب الأخرى.

سادت النظرة قديماً للدم باعتباره سائل الحياة وهو ما دفع بشعوب عديدة لشربه

وفي العصور الوسطى؛ شاع الحديث عمّا يعرف بـ «فطير صهيون» أو «فِرية الدم»، وهو اعتقاد ساد في أوروبا بأنّ اليهود يحضرون طفلاً مسيحياً في عيد الفصح ويستخدمون دمه في عجن الخبز المخصص للاحتفال، وهو ما بقي مثاراً للجدل بين مثبت ومنكر، وإنْ كانت هذه العادة بالعموم منافية لما جاء في العهد القديم.

وقد تابع الإسلام ما ورد في العهد القديم من تحريم لأكل الدّم، فجاء في الآية الكريمة: «قل لا أجد فيما أوحي إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس» (الأنعام،١٤٥)، وقوله تعالى: «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» (البقرة،١٧٣)، وتم استثناء نوع محدد من الدماء، نصّ عليه الحديث النبوي الشريف: «أُحلّت لنا ميتتان ودمان... وأمّا الدمان فالكبد والطحال»، حيث تم تحريم الدم السائل المائع، أما الدم غير السائل كالكبد والطحال فأبيح أكله.

وتبقى ميّزة الإنسان عن غيره من الكائنات، في مدى تعقيد ما يُسبِغ من قيم رمزية ومعنوية على الموجودات في محيطه؛ حيث تشكّل هذه القِيَم أساس المعنى في حياة الفرد والجماعات، وأساس تصوراتنا عن أنفسنا وعن العالم من حولنا.

خالد بشير
كاتب أردني

(٧) حيوانات حظيت بمكانة خاصّة في الأديان والثقافات.. تعرّف عليها

عاش الإنسان مع الحيوانات عبر مئات الآلاف من السنين، خاض خلالها مواجهات شديدة مع الضواري المفترسة، في حين تمكّن من استئناس وتدجين أصناف عديدة منها، ولكنّ تفاعل الإنسان مع الحيوان لم يقتصر على المواجهة والاستئناس، وإنما تعدّى ذلك إلى تطوير قيم وتصورات خاصّة مرتبطة بأصناف عديدة من الحيوانات، وذلك بالتزامن مع تطوّر وتعقد المنظومات الثقافية والدينية عند البشر.

الأفعى رمز الشر.. والشفاء

احتلّت الأفعى مكانة مميزة في الأديان والثقافات المختلفة، وذلك عائدٌ بالأساس إلى شكلها الطولي المميز، وعدم وجود أقدام تستخدمها في حركتها الانسيابية، وإلى نمط حياتها الفريد؛

من الميثولوجيا الفرعونية: الإله «رع» يتخذ صورة القط ويتمكن من ذبح «أبوفيس» الإله الأفعى

إذ تختفي معظم الأحيان ولا تظهر إلا بتوقيت مفاجئ ومن أماكن مجهولة. وكثيراً ما ارتبطت بمعاني الشرّ والأذى، بسبب إفرازها للسموم الفتاكة التي تودي بحياة من يتعرض لها، ولخبثها وسلوكها المباغت عند الهجوم.

ونجد الأفعى عند الفراعنة حاضرة وظاهرة في الرسومات والكتابات الدينية، كما يوجد الإله «أبوفيس»، والذي هو أفعى الشريرة، تلقب بـ «شيطان الظلام»، وهو رمز للشر، وبالرغم من ذلك أقام الفراعنة طقوس العبادة له، في محاولة لاسترضائه، وذلك لارتباطه بالكوارث الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والأعاصير، وضمن تصورات صراع الخير والشر، نجد «أبوفيس» يخوض صراعاً مع الإله «رع»، إله الشمس.

وفي بلاد ما بين النهرين، استُخدمت الأفعى كرمز ديني في الألواح والمنحوتات الدينية عند السومريين، وكذلك عند الآشوريين. وعند الأكاديين يظهر المخلوق الأسطوري «موشوسو» الذي له رأس حية، واستخدم كتجسيد ورمز لعدد من الآلهة، واشتهر لوجوده على بوابة عشتار. ويرد في أسطورة الخلق البابلية «اينوما ايليش» وصف الأفعى بالخبث، فبحسب الأسطورة أن إلهة المحيط «تيمات» بعدما ثارت خلقت «الأفعى الخبيثة والتنين».

وفي الهند، عُبدت الأفاعي كآلهة، وهو ما يستمر إلى اليوم في الطقس الاحتفالي الشهير المعروف بـ«ناجا بانتشامي»، في اليوم الخامس من الشهر الخامس في التقويم الهندوسي، ويقدم فيه المؤمنون الحليب والفضة لأفاعي الكوبرا، طلباً منها لتوفير الحماية والوقاية من الشر، كما وتظهر أفاعي الكوبرا على أعناق الآلهة «شيفا» و«فيشنو»، الإلهين الرئيسيين في الديانة الهندوسية.

أما عند الإغريق، فاختلفت النظرة للأفاعي تماماً، واعتبرت سبباً للدواء والعلاج، مع إثبات الطب اليوناني أن

«لم يقتصر تقديس البقر على الهندوس فرمز الفراعنة لآلهة الحب والجمال والأمومة والخصوبة ببقرة تحمل القمر بين قرنيها»

سُمّ الأفعى له مفعول الشفاء إن تناوله المريض بالفم، ومن هنا ظهرت الرموز الشهيرة، ككأس «هيجيا»، إلهة الصحة والنظافة، والتي هي اليوم رمز للصيدليات حول العالم، وعصا هرمس، وهي العصا الشهيرة التي ترسم مع ثعبانين ملتفين وفوقهما جناحان، وتُستخدم اليوم كرمز للطب حول العالم، وعصا «أسكليبيوس»، ابن الإله أبولو، وهو إله التطبيب والشفاء من الأمراض، والتي هي عبارة عن أفعى ملتفة حول عصا.

الإلهة «هيجيا» تحمل أفعى تُفرغ سمها في كأس.. تحولت الصورة لشعار الصيدليات الشهير

في اليهودية والمسيحية، صُوّرت الأفعى كمخلوق غاية في المَكر والشرّ، وجاء في سفر التكوين أنّ الثعبان هو من أغرى حواء بإقناع آدم للأكل من شجرة المعرفة، ومن ثم تم معاقبتهما بإخراجهما من جنة عدن، وبالتالي فالأفعى تظهر كتمثل وتجسيد للشر والشيطان. وفي الإسلام، نجد الاعتقاد بـ«الثعبان الأقرع»، والذي جاء في الحديث النبوي بأنه يأتي يوم القيامة يطوّق كل من آتاه الله تعالى مالاً فلم يؤد زكاته، يقول له: «أنا مالك أنا كنزك» (صحيح البخاري)، وبالتالي فهو رمز للعذاب، ويحظى بمكانة ودور في العذاب والجحيم الأخروي.

الخنزير.. اللحم المحرّم

تشتهر ديانتا الإسلام واليهودية بموقفهما الحازم من الخنزير، حيث تشتركان بتحريم تناول لحمه تحريماً قاطعاً، يصل حتى إلى تحريم الاستفادة

من أي جزء منه، كالجلد أو الدهن، ويتم تعليل ذلك بكون الخنزير حيواناً «نجساً»، كما يوضح ذلك أتباع الديانتين، فنجد عند البحث على محرك البحث عن «سبب تحريم لحم الخنزير» إجماعاً في مختلف مواقع الإفتاء الإسلامية على اعتباره حيواناً غير نظيف، يأكل كلّ شيء، بما في ذلك القمامة، والفضلات والنجاسة. ولكن الموقف من الخنزير لم يتوقف عند تحريم الأكل، فنجد أنّه تطوّر في الثقافة الشعبية لدى الشعوب العربية والمسلمة إلى اعتبار مجرد ذكر كلمة «خنزير» أو وصف أحد بها بمثابة شتيمة.

في ألمانيا: تقدم دُمى الخنازير كهدايا جالبة للحظ في ليلة رأس السنة

كما نجد في القرآن الكريم ذكر الخنازير مقترناً بلعن أقوام وحلول الغضب الإلهي عليهم وذلك في الآية: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ * مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» (المائدة: ٦٠)، ويأتي في التفسير، كما عند الطبري وغيره، أنّ المقصود هم قومٌ من بنى إسرائيل مسخهم الله إلى خنازير، كما مسخ «أصحاب السبت» إلى قردة.

ولكن الأحكام السلبية بحقّ الخنازير لم تكن هي القاعدة الثابتة في مختلف الثقافات والأديان، وعلى سبيل المثال نجد في الثقافة الألمانية، أنّ الخنزير يرمز للحظ الجيد، ويشتهر في ألمانيا تقدم دمية «خنزير» المعروفة باسم «مارزيبان» في ليلة رأس السنة كهدية جالبة للحظ في السنة الجديدة.

الغُراب.. بشارة الزواج السعيد

احتلّ طائر الغراب مكانة مميزة في مختلف الثقافات والأديان، وذلك عائدٌ إلى أسباب عديدة، بدايةً من انتشار أنواعه المختلفة بأعداد وفيرة بين أهالي المدن والقرى في أرجاء واسعة من المعمورة، إضافة إلى ما يميزه عن باقي الطيور من الحجم الكبير، واللون الأسود الحالك، والصوت المرتفع المثير للانتباه، والذي

«رغم الأحكام السلبية بحقّ الخنازير في مختلف المعتقدات والأديان فإنها ترمز للحظ الجيد في الثقافة الألمانية»

هـو أقـرب للنعيـق والـصراخ. يُضـاف إلى ذلـك ارتفـاع مسـتوى الـذكاء عنـد الغـراب؛ فهـو طائـر يُحـب اللعـب واللهـو، وإذا أراد التقـاط شيء لا يختـار إلا مـا يلمـع، كمـا أنّـه صاحـب علاقـات وسـلوك اجتماعـيّ معقّـد، فنجـد عنـده الأسرة النـواة، والإخـلاص التـامّ للزوجـة، كلّ ذلـك حفّـز المخيلـة البشريـة -عـلى مـرّ العصـور- لربـط الغـراب وإقحامه في الكثـير مـن القصـص والحكايـات والأسـاطير.

وفي الثقافـة العربيـة، نجـد الغـراب رمـزاً للشـؤم والفـأل السـيئ، والأرجـح أنّ ذلـك عائـد بالأسـاس إلى ارتبـاط لـون الغربـان، اللـون الأسـود، بالشرّ عنـد الشـعوب العربية، وصـار مـن المألـوف في المأثـور الشـعبي العـربي ارتبـاطُ نعيـق الغـراب بالأخبـار السـيئة، ويعـبّر عـن ذلـك المثـل المـصري: «يـا فرحـة مـا تمـت.. أخدهـا الغـراب وطـار»، كمـا يسـود الاعتقـاد أنّ نعيـق الغـراب في حـيّ مـا، هـو نذيـر قـرب مـوت أحـد سـاكنيه، خصوصـاً مـن كان مريضـاً منهـم.

ولا يقتـصر التصـوّر السـلبي عـن الغراب عـلى الثقافـة العربيـة، بـلّ نجـده مشـتركاً في

الإله «أودين» والغرابان المرافقان له

أغلـب الأديـان والثقافـات، وفي التـوراة، نجـد الغـراب مرتبطـاً بالخـراب، جـاء في سـفر «إشـعياء» عنـد الحديـث عـن الخـراب الـذي سـيصيب الأمـم: «ويرثهـا القـوق والقنفـذ، والكـركي والغـراب يسـكنان فيهـا ويمـدّ عليهـا خيـط الخـراب ومطمـار الخـلاء» (سـفر إشـعياء: الإصحـاح الثـاني عـشر). وورد في التلمـود، وفي تفسـير قصـة نـوح، أن نوحـاً عاقـب الغـرابَ بنفيـه مـن السـفينة بسـبب جريمـة ارتكبهـا، وفي تفسـير آخـر أنّ الغـراب غـادر السـفينة ولـم يعُـدْ، فغضـب منـه نـوح، فحلّـت عليـه اللعنـة، وكان لونـه أبيض، فأصبـح أسـود.

«عند الإغريق اختلفت النظرة للأفاعي تماماً واعتبرت سبباً للدواء والعلاج كما تظهر اليوم برمز الصيدليات حول العالم»

أما عند الإغريق والرومان، فنجد ازدواجية في الموقف من الغربان، فمن ناحية اعتُبرت الغربان رمزاً للزواج السعيد، وفي حفلات الزفاف الإغريقية كان الحضور ينشدون «أغنية الغراب»؛ على أمل أن يكون الزوجانِ مخلصينِ لبعضهما، كما هو حال الغراب مع زوجته، ولذا كان الغراب هو الطائر المقدس لدى الإلهة «هيرا» زوجة كبير الآلهة «زيوس»، وكذلك عند «جونو» ربة الزواج عند الرومان.

من ناحية أخرى، كانت الغربان على خلاف مع عموم الآلهة، وذلك بسبب سرقتها اللحم الذي كان يُترك على مذابح الآلهة؛ يذكر الكاتب الإغريقي «أيسوب»، في كتابه الشهير «خرافات أيسوب»، أنّ غراباً مريضاً طلب من أمّه أن تصلي للآلهة من أجل شفائه، ولكنها أجابته أنه ليس من المحتمل أن يقوم أحدُ الآلهة بمساعدته؛ لأنّه قد سرق منهم جميع القرابين التي قُدمت إليهم.

وفي العصور الوسطى، ارتبطت الغربان بصورة القلاع المهجورة التي يسكنها السحرة، وبالتالي بالشرّ والظلام، وفي الميثولوجيا والقصص الألمانية اعتبرت الغربان أرواحاً شريرة، وفي الثقافة والأساطير النوردية (ثقافة شعوب شمال أوروبا)، ارتبط الغراب بالإله «أودين»، كبير الآلهة عند «الفايكنج» والشعوب الاسكندنافية، إلى درجة أنّه كان يدعى في بعض الأحيان بـ «ملك الغربان»، وكان يصوّر وعليه غرابَيْن على كتفيه، ولا يعني هذا الارتباط بالضرورة حكماً ايجابياً للغربان؛ فقد ارتبط «أودين» باختصاصات عديدة، منها السحر، والغضب، والموت.

البوم.. طائر الحكمة الغامض

بوجهه المسطح القريب من شكل قلب الحب، وحاجبيه البارزين، وعيونه الدائرية الواسعة، يظهر طائر البوم كأحد أكثر الأشكال فرادة بين الطيور، الأقرب للوجه البشري، وهو ما جعل نصيبه من الأساطير والحكايات أكثر قدراً.

في كثير من الثقافات، يعدّ البوم نذير شؤم، كما نجد ذلك مثلاً في الثقافة العربية، وقد يكون ذلك عائداً إلى إقامته

عملة فضية أثينية.. رسمت البوم على أحد وجهيها وعلى الآخر وجه الإلهة أثينا

في الأماكن الخربة والمنعزلة التي لا يرتادها الناس كثيراً، وعدم ظهوره إلا في ساعات الليل واختفائه مع طلوع الشمس، إضافة إلى صوت صياحه الحزين الذي يخيف سامعيه في الليالي المظلمة، كل ذلك دفع لربط البوم بالشرّ والظلام، وهو ما ساد أيضاً في أوروبا خلال العصور الوسطى، حيث ارتبطت البومة بالسَحرة والمشعوذين، وهي الصورة التي تم استدعاؤها في سلسلة أفلام السحرة الشهيرة «هاري بوتر».

في الكتاب المقدس، ذُكر البوم في خمسة مواضع، كلها مقترنة بالخراب والدمار، ومن ذلك ما ورد عند الحديث عن هلاك الأمم: «وَيَمْلأُ الْبُومُ بُيُوتَهُمْ» (سفر إشعياء، الإصحاح الثالث عشر). وهناك أسطورة شهيرة تشاركت شعوب عديدة الاعتقاد بها، تقول إنّ البوم مجرم مختلس، وأنه قاتل يحوم بالسماء ليلاً يترصد ضحاياه من البشر، ومن ذلك الأسطورة التي انتشرت حتى زمن قريب في أرياف بلاد الشام بأنّ البوم إذا رصد طفلاً رضيعاً يتسلل إلى المنزل فيجثم على صدره ويلتهم لسانه، بينما ظهرت خرافة مشابهة في أوروبا العصور الوسطى تتحدث عن ساحرات لديهن القدرة على التحول إلى بوم ينقض بعد ذلك على الأطفال الرضع النيام ويمتص دماءهم.

وبالعودة إلى الحضارات القديمة ثمة اعتبارات وتصورات مغايرة عن هذا الطائر، عند الفراعنة كانت البومة طائر رمسيس الثاني المفضّل، وبحسب ما يُروى فإنها ذات يوم ضربته بجناحها في وجهه وكادت تفقأ عينه فغضب وصار ناقماً عليها، ويشير الباحث «ديزموند موريس»

«ساد الاعتقاد بأنّ البوم قاتل يحوم بالسماء ليلاً يترصد ضحاياه من البشر، وعند الإغريق اعتُبرت البومة رمزاً للحكمة»

ساد الاعتقاد أنّ القطط السوداء خدم للساحرات في العصور الوسطى

في كتابه «البومة» إلى أنّ «المصريين ربطوا بين البوم والروح البشرية، حيث كانت روح المتوفى في معتقداتهم ترتحل ليلاً في جو على شكل طائر ذي رأس بشرية يشبه إلى حد كبير طائر البومة».

أما عند الإغريق فقد اعتبرت البومة رمزاً للحكمة، وتم تصويرها كمرافقة الإلهة أثينا، ورسمت صورة البومة على أحد وجهي عملة أثينا، كما وُجدت صورة البومة على كثير من الأواني الخزفية الإغريقية، ويُذكر البوم في المؤلفات الأدبية اليونانية، باعتباره الطائر الحكيم.

بينما فضّلت شعوب أخرى الاستفادة من البوم من ناحية طبية، كما نجد عند الهنود الحمر من قبيلة «الشيروكي» أن يغسلوا أعين أطفالهم بماء يحتوي على ريش طائر البومة من أجل منحهم المقدِرة على السهر طوال الليل.

القطط.. من إلهة إلى خادمة للسحرة

تعتبر القطط من أكثر الحيوانات ألفة وانتشاراً بين البشر، وذلك منذ دجّنها الإنسان - قبل نحو عشرة آلاف عام - سعياً منه للاستفادة منها في التخلص من خطر القوارض على مخازن الحبوب، وقد استدعى انتشار القطط وقربها من البشر العديد من التصوّرات والمعتقدات؛ فعند الفراعنة، كانت القطط مرتبطة بـ«إيزيس» إلهة الأمومة والخصوبة، والإلهة «ماعت»، إلهة الحق والعدل والنظام، فكانت تظهر في الصور والمنحوتات الخاصة بهما، كما قاموا بتصوير الإلهة «باستيت»، إلهة الحنان والوداعة، في صورة قطة، فكان لها وجه

الإلهة «حتحور» في صورة بقرة تحمل القمر بين قرنيها

قطة وجسد امرأة، وكذلك هي صورة الإلهة «مافدت»، المسؤولة عن توفير الحماية ضد الأفاعي والسحالي.

ويعكس ارتباط القطة بالآلهة المؤنثة عند الفراعنة الارتباط الوثيق بين القطط والنساء عندهم، كما كانت المرأة الفرعونية في غالبية النقوش تُجسد جالسة على كرسي وتحت قدميها قطة، واشتهر الفراعنة بتحنيط القطط بعد موتها، وكانوا يدفنونها في المقابر مع الممتلكات الثمينة، تعبيراً عن المكانة التي حظيت بها.

في الميثولوجيا النوردية، ارتبطت القطة بالإلهة «فريا»، إلهة الحب والجنس والجمال والخصوبة، التي يتم تصويرها محمولة على عربة تجرها قطتان، وفي الأديان التي تؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح، كما في البوذية اعتُبرت القطط مسكناً للأرواح المقدسة، التي تختارها لتسكن فيها.

في العصور الوسطى، اعتبرت القطط السوداء رمزاً للشرّ وارتبطت بالسحرة والشعوذة، وساد الاعتقاد أنّها خدم للساحرات، وقد ظهر اعتقاد مشابه عند الشعوب العربية والمسلمة، من الاعتقاد بأنّ القطة السوداء هي مسكن للجن والشياطين، كما ظهر اعتقاد شعبي أنّ القطة «لها سبعة أرواح»، ومن ناحية فقهية اعتبرت طاهرة، خلافاً للكلب، ما شجّع على تربيتها والاعتناء بها، وقد اشتهر الصحابي أبو هريرة بمرافقة القطط وتربيتها.

البقرة.. هل يعبدها الهندوس؟

يروج الاعتقاد بأنّ «الهندوس يعبدون البقر»، ولكن الأدقّ هو أنّ الديانة الهندوسية تقدّس البقر، باعتبارها رمزاً للغذاء والوفرة والحياة، وللأرض والعطاء، وقد جاء في كتاب الفيدا المقدس: «يجب معاملة البقرة كما تعامل الأم»، وهو ما أوجب عدم قتلها أو أكلها،

الكلب «سيربيروس».. حارس العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية

ولكن مع عدم النهي عن الاستفادة من حليبها وروثها.

ولم يقتصر تقديس البقر على الهندوس، فعند الفراعنة رُمز للإلهة «حتحور»، إلهة الحب والجمال والأمومة والخصوبة، بصورة بقرة تحمل القمر بين قرنيها.

وفي اليهودية، كان من أهم الطقوس التطهريّة: ذبح بقرة حمراء وحرقها، ومن ثم خلط رمادها بالماء، يتطهر به كل من يمسّ جثة إنسان، بحسب ما جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر العدد.

الكلب.. حارس العالم السفلي

كان البابليون القدامى هم أول من ربط الكلاب بعالم الآلهة، حين قرنوا بينها وبين الإلهة «غولا»، إلهة الشفاء والطب، وتظهر الكلاب دائماً مجاورة لها في منحوتاتها، وعند الآشوريين كانت تستخدم تماثيل الكلاب كتمائم للحماية.

وتشاركت الأساطير الهندو-أوروبية بأسطورة الكلاب التي تحمي بوابات العالم السفلي، ومنها الأسطورة الإغريقية عن الكلب «سيربيروس»، ثلاثي الرؤوس، الذي يقوم بحماية بوابة العالم السفلي. وعند الهندوس، ثمة اعتقاد بالإله «ياما» إله الموت، يصاحبه

كلبـان يمتلـك كل منهمـا أربعـة أعـين، يحرسـان العالـم السـفلي.

وعنـد المسـلمين، سـاد الاعتقـاد بنجاسـة الكلـب، ونهـى الفقهـاء عـن اقتنائـه إلا بداعـي اسـتخدامه للحراسـة، وقـد جـاء الأمـر في الحديـث بغسـل الإنـاء الـذي يـشرب فيـه الكلـب سـبع مـرات، كمـا سـاد الاعتقـاد الشـعبي بـأنّ الكلـب الأسـود يسـكنه شـيطان.

وهكـذا، وعـلى اختـلاف القيـم والتصـورات والمعتقـدات والأسـاطير، كان المشـترك بينهـا هـو ذلـك المـدى الفسـيح الـذي انطلقـت في رحابـه المخيلـة البشريـة، تنسـج الحكايـات والمعـاني، عـن الكائنـات المحيطـة بهـا، فلـم تقتـصر النظـرة لهـا عـلى صورتهـا الخارجيـة، أو عـلى اعتبارهـا مصـدراً للغـذاء أو منافـعَ أخـرى، كمـا آل إليـه الحـال في العـصر الحديـث.

عاصف الخالدي
كاتب أردني

الأديان والخلاص: لماذا لا يأتي المهدي أبداً؟

لا يزال البشر يبحثون عن أبطال، وفي حال لم يجدوا واحداً، فإنّهم يخترعونه، وغالباً ما يأتي بصورة المخلص، الذي يريح الناس من المآسي أو الشرور أو القمع حين تُغلق كل أبواب الأمل في التغيير.

وفي هذا السياق يأتي المهدي، ومسيح آخر الزمان، وغيرهما، فهي قناعة قديمة لا تقتصر على الديانات السماوية، وظلت تتردد حتى اليوم، عن قدوم الإنسان الكامل، العادل، من غياهب الماضي ليصلح حال الأمة، فما هو أصل هذه الفكرة، وكيف تطورت عبر الأديان، ولماذا بقيت صامدةً حتى اليوم؟

«لم يظهر المخلّص أو المهدي إلى هذا العالم لكن الفكرة تكمن ربما في انتظاره لا مجيئه»

مخلّص ينتظره الجميع

رغم قدم الفكرة، التي تعود إلى آلاف الأعوام، وتنتمي إلى العديد من الحضارات والديانات السماوية وغير السماوية، إلا أنها لم تتحقق أبداً، وهي تشبه شخصية «غودو» في مسرحية الكاتب الآيرلندي صمويل بيكيت، الذي ينتظره الجميع طوال الوقت رغم أنّه لا يأتي أبداً، ولعل سر قوة فكرة المهدي أو المخلص يكمن ربما في عدم مجيئه أصلاً.

في كتابه «فكرة المخلص»، الصادر عن دار «جداول» العام ٢٠١٢، يتحدث الباحث محمد الصديقي عن «مدى قدم فكرة المخلص»، فهو رجلٌ عظيم سوف يعيد السلام والعدل إلى العالم، الأمل الذي رافق البشر منذ ظهورهم وبزوغ حضاراتهم.

ويقول صديقي «تبدأ فكرة المنقذ بالتشكل منذ الحضارة الفرعونية القديمة؛ حيث كان المصريون يعتبرون ملوكهم من المنقذين والمخلصين، كما توجد بعض الوثائق الدالة على اعتبارهم الإسكندر المقدوني مخلصاً في مرحلةٍ لاحقة، بسبب تحريره لهم من الفرس وقمعهم واحتلالهم، حيث سئموا الثورات الفاشلة التي قاموا بها ضد الفرس، وانتظروا مخلصاً من الخارج».

أما الفرس أنفسهم، فيملكون منقذهم الخاص، الآتي من قلب العقيدة الزرادشتية القديمة، ويشير صديقي إلى زرادشت و«سوشيانت»، وهو اسم فارسيٌ للموعود المنتصر، أو ما يمكن تسميته اليوم «المهدي المنتظر».

الفرس، أرادوا من فكرة المخلص أن «تحميهم من الزمن المحدد بين الولادة والموت؛ حيث يتعرضون خلال الحياة إلى الكفر والمرض والآلام والمصائب، إلى أن يأتي مخلصٌ في نهاية الزمان وينبعث من جديد فيلغي كل كوارثهم».

وتبدو فكرة المخلص هنا اتكالية، تعكس عجز الشعوب عن تخليص نفسها من كوارثها بصورةٍ ذاتية، إلا أن الفكرةً انتشرت في معظم الديانات، فسوشيانت، هو المسيح عند اليهود، وبوذا عند البوذيين، وكريشنا لدى الهندوس،

الكوارث والحروب ربطت فكرة ظهور المخلص بحلول نهاية العالم

و»فارقليط» عند النصرانيين، والمهدي لدى المسلمين.

وفي الديانة اليهودية، يأتي النبي موسى كمخلصٍ ومنقذٍ قاد شعبه نحو الخلاص بنقلهم من أرض مصر إلى أرض كنعان، بحسب الروايات التوراتية، كما يحل دور الملك «قورش الفارسي» مخلصاً ثانياً لليهود، بحسب ما يطرحه الصديقي، ووفقاً للعهد التوراتي القديم.

أما في المسيحية، فإن الديانة بصورةٍ عامة، تقوم على عقيدة الخلاص، وأن المسيح المخلص، فدا الإنسانية بدمه وجسده، حيث إنه سوف يعود في نهاية الزمان، ليحاسب الأشرار والكفار، وينشر العدل.

وبصورةٍ عامة، يوجد لدى المسلمين الشيعة والسنة معتقداتٌ حول رجلٍ من نسل النبي محمد، عليه السلام، سيظهر في آخر الزمان ليحكم بالعدل، ويعتقد بعض السنة ومعظم الشيعة مثلاً، أن من شروط حلول يوم القيامة، خروج المهدي آخر الزمان، ليحكم سبع سنين، يملأ فيها الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

وتاريخياً، يمكن تتبع تاريخ الحضارات والشعوب، والديانات أو المعتقدات التي ارتبطوا بها؛ حيث تُجمع معظم هذه

«لكل معتقدٍ أو ديانة مخلّصها الخاص من الكوارث والظلم والحروب حيث تبدو فكرة مشتركة وقديمةً جداً»

المعتقدات، على وجودِ رجلٍ منقذ من كوارث الطبيعة والحروب والموت، ويبدو أن هذا الرجل تطور، ليصبح ملكاً أو قائداً، ثم تم تأليهه وحياكة الأساطير حوله بمرور الزمن.

المهدي والغياب الأبدي

منذ ظهور العقيدة الزرادشتية، أصبح للعالم نهايتان، واحدة فردية شخصية، وأخرى هي القيامة، حيث ينتهي العالم ككل. ومع ظهور الإسلام، بدا أن الخلاص يتركز على كونه جماعياً، وفي بحثه الذي حمل عنوان «البحث عن منقذ»، يرى الباحث العراقي فالح مهدي، أن «الرسول محمد عليه السلام، كان أول المخلصين والمنقذين في الإسلام؛ حيث انتشل البشر من جاهليتهم، لتصبح أخلاقهم هي أخلاق النبي، وتربيتهم هي تربيته ذاتها».

ويوضح مهدي فكرة الرسول المنقذ بقوله «لقد صحبت ولادة الرسول إشارات وتنبؤات، مثل تلك التي صحبت ولادة من أصبحوا مخلصين، مثل كريشنا الهندي، وبوذا، وغيرهما»، حيث تتسم حياة المخلصين، في الموت والولادة والانبعاث إن وجد، بإشاراتٍ تسبق هذه المراحل. كما إنّ كلاً منهم «يحمل معجزته الخاصة، مثل كريشنا الذي تكلم وهو في المهد، أو زرادشت الذي كان يضحك فتهرب الأرواح الشريرة».

ويحاول الباحث القول، بحسب تحليله، «أنه توجد علاقةٌ تاريخية بين الانبياء والمخلصين».

غير أن المسلمين عموماً، لا يتحدثون عن أي عودة للرسول محمد عليه السلام ليخلص البشرية، فهو أدى رسالته من الله تعالى إلى البشر، وترك لهم الإسلام كخلاص.

لكنّ الإسلام الشيعي أو الإثني عشري، لا يكتفي بهذه الفكرة؛ حيث توجد سلسلة من الأئمة، عددهم اثنا عشر، ويأتي المهدي كإمامٍ أخير، ليخلص البشرية ويهديها، ولغوياً، تعود كلمة «مهدي»، إلى صيغة المفعول به من «هدى» أي، الذي هداه الله، وفقاً لابن منظور في معجم «لسان العرب».

توجد تصورات وقصص كثيرة عن المهدي إلا أنه يبقى غائباً مثل أسطورة

أما شخصيته، فتتميز بالغياب؛ إذ لا توجد أدلةٌ واقعية وتاريخية على وجوده، ورغم ذلك، فإن له اسماً وتاريخ ميلاد ومكان ميلاد، أما اسمه المتداول بين الشيعة فهو «محمد بن الحسن العسكري ابن علي الهادي ابن محمد الجواد ابن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب».

وولد المهدي في مدينة سامراء، منتصف شهر شعبان، من عام ٢٥٥هـ، ويشاع أن والده أخفاه عن أعين الناس خوفاً عليه، وفقاً لكتاب «بحار الأنوار»، للإمام «المجلسي».

ويشير المجلسي، وغيره من أئمة الشيعة، إلى «أنه بعد وفاة المهدي، بحث العباسيون عن ابنه محمد الذي كان يبلغ من العمر خمسة أعوام لقتله أو اعتقاله، مما جعله، يختفي عن الأنظار هرباً من الملاحقة العباسية، وقد عُرفت تلك الفترة بفترة الغيبة الصغرى واستمرت من ٢٦٠هـ-٣٢٩هـ، وكان التواصل فيها ما بين المهدي

«الفكرة لا تزال جذابة حتى يومنا هذا وتوجد بقوة في المذهب الشيعي وفي أفلام السينما الغربية»

«فكرة المخلّص اتكالية تتضمن اعتماد الشعوب على الأمل والانتظار دون محاولتم تخليص أنفسهم ذاتياً»

وأتباعه، يتم عن طريق وكيل أو سفير للإمام، يقوم هو بنفسه باختياره».

ومثل العديد من قصص المخلصين، يظهر المهدي حين تقترب نهاية الزمان، أما نهاية الزمان ذاتها، فترتبط بحسب الأئمة الشيعة، بوصول الظلم والقمع البشريين حدهما الأقصى؛ حيث سيظهر المهدي في مكة ويتوجه إلى الكوفة «وسوف يطلب البيعة من أنصاره وشيعته، وعندها سوف يبايعه الآلاف».

فكرة المهدي، ظلت أقوى عند الشيعة، وعبر التاريخ الإسلامي عموماً، تم استثمارها سياسياً ودينياً، لتشبه نوعاً من الأمل، بوجودِ شخصٍ واحد، يأتي فجأة، لينجي البشر من مآسيهم، وهو مبعوثٌ من الله، يحمل بين يديه العدل ليبيد الشر. وكثيراً ما تم استثمار تلك الرواية لتشبيه قادةٍ سياسيين إيرانيين بها مثلاً، حيث كان الخميني شبيهاً للمخلص في العديد من الروايات، بل وكان يتواصل معه، مما يمنحه، ويمنح أي قائدٍ آخر، القدسية والأبدية، والحق في منع أي فردٍ من مناقشة أفكاره بشكلٍ عام.

وفي حين يبدو أن فكرة المهدي، لم تتجاوز الشرق وآسيا قديماً، يمكن النظر حديثاً إلى أوروبا وأمريكا، من بوابة الفنون والسينما، حيث يأتي الكثير من الأبطال الفرادى، بصورةٍ حديثة، مدججين بالتكنولوجيا أو الأسلحة أو المعرفة، لينقذوا العالم من شرورٍ أو دمارٍ كبيرين، مثلما تطرح أفلام كسوبرمان، أو ماتريكس، أو ٢٠١٢.

فكرة المخلص، قديمة جديدة، سعى البشر قديماً من خلالها؛ إلى الأمل والانتظار والتواكل، واستفادت منها السلطة في وأد أي محاولة ذاتية للشعوب لتنتفض ضدها كلما زاد ظلمها وفسادها، ومع أن الفكرة اليوم تبدو مغرقة في الخيال مع تقدم البشر وانتشار المعرفة والعلم وقيم الحرية والتغيير، إلا أنّها ماتزال جذابةً حتى الآن، ومرشحة للبقاء بطريقةٍ أو بأخرى.